حين تتشابك الحكايا

رواية

سلوى جراح

حكاية غريب عطا الله

كل ما حوله لا يشبه ما اعتاد رغم أنه في مكان يعرف كل تفاصيله. فهو في غرفة الجلوس في بيتهم، مكانه المفضل الذي يقضّي فيه معظم ساعات نهاراته وبعضاً من ليله مذ أن أصبح متقاعداً، فيها يكتب ويقرأ ويعمل على مقالات علمية ينشرها في بعض الدوريات. هو في مكان اعتاده وألفه منذ سنين ويعرف كل تفاصيله بل وشارك في اختيار كل قطعة أثاث فيه وكل لوحة ومصباح لتكون كلها في انسجام وتناغم ولتلائم مزاجه ومزاجها. من أين جاءه إذاً هذا الإحساس بغرابة المكان؟ عاد يرتب أفكاره من جديد. هو الآن مستلق على الصوفا الكبيرة الوثيرة كما يحب أن يفعل كلما تعب من القراءة والكتابة. الصوفا التي أمضى عليها ساعات من النوم العميق خلال النهار حين يشعر بالتعب، وفي الليل حين يسرقه الوقت وهو يعمل على مادة تؤرقه فيستلقي عليها ليستريح ويراجع ما كتبه، ويغرق في نوم عميق وحوله أوراقه. ثم تأتي هي، تتفقده وتهمس: "حبيبي غريب قوم نام في سريرك عشان ترتاح." فيعدها أنه سيفعل خلال الدقائق القادمة، لكنه لا يفعل وينام ليلته على الصوفا العتيدة. في الصباح، يعتذر لها عن قضاء ليلته بعيداً عنها، فتقبله دون أن تقول شيئاً. هي حبيبته منذ سنين، مذ التقاها في لندن قبل أكثر من عشرين عاماً، بالتحديد في خريف عام ستة وتسعين.

أخذ نفساً عميقاً. دار بعينيه في المكان. كل شيء في مكانه المعتاد، من أين جاءه هذا الإحساس بغرابة المكان في غرفته المفضلة والصوفا المريحة التي يذكّره لونها الأخضر الغامق بأول صوفا اشترياها قبل زواجهما من محل الأثاث الشهير في شارع توتنهام كورت رود. كان يريد أن يجدد بعض أثاث شقته لتكون لائقة بعروسه خاصة الصوفا التي أتعبها جلوسه ونومه عليها، ولم تعد تليق باستقبال العروس، أو المستأجر الذي سيترك له الشقة حين يغادر لندن لتحقيق حلم كبير برفقتها، حبيبته وعروسه سهام. توقّف معها أمام فترينة زجاجية ضخمة لأحد المحلات المعروفة وهو يقول ضاحكاً: "تعالي ندخل نتفرج شوفي ما أجمل الأثاث المعروض." قالت بحزم وهي تثبت أقدامها في أرض الشارع: "هذا المحل غالي كثير." صاح ضاحكاً: "مش غالي كثير زي ما بتتصوري. تعالي بس شوفي إسمه، هيلز، يعني ترجميها إلى العربي بتطلع كعوب جمع كعب، يعني لا فخيم ولا شيء تعالي ندخل ونشوف شو عنده." همهمت وهي تحاول أن تكتم ضحكة: "هو محل فخيم دخلته وتفرجت على البضاعة فيه، كلها جميلة لكنها غالية الثمن." أمسك بيدها وجرها إلى داخل المحل.

دار بها حول مجموعة من قطع الأثاث ثم توقف أمام صوفا وثيرة بلون أوراق شجرة الزيتون عليها وسائد مشجرة بدرجات اللون الأخضر والبيج. همس: "شوفي العظمة شوفي الجمال." همهمت: "أيوه بس أكيد غالية جداً يا غريب." ألقى بنفسه عليها وهو يقول: "لأنها مريحة جداً يا سهام يا حبيبتي." أقترب منهما أحد الباعة وهو يقول إن هذه الصوفا بسعر مخفض جداً لأن من سيشتريها سيشتري هذه الصوفا بالذات. أي أن المحل لن يصنع له صوفا جديدة على نسقها كما هو متعارف عليه. وعليه إن أعجبتهم يمكنهم تسلمها خلال الأيام القادمة بدلاً من الانتظار لأسابيع لصنع صوفا جديدة. أغراهما العرض السخي وسرعة التسليم، واشترياها للشقة الصغيرة في منطقة كامدن تاون التي عاشا فيها بعد الزواج.

كان محظوظاً أن يلتقي بسهام ويحبها وتبادله الحب ويتزوجا بعد تعارف لم يتجاوز بضعة أسابيع. كانت يومها سهام تزور لندن لأول مرة بعد أن رشحها المركز الثقافي البريطاني في عمان لتحاضر في دورة لمدرسي اللغة الإنكليزية لغير الناطقين بها. موضوع أجادته بعد سنين من الخبرة. وشاءت الصدف أن يكون مكان الدورة في أحد المباني التابعة لجامعة لندن، على مبعدة خطوات من مكان عمله في نفس الجامعة. فجامعة لندن، لا تمتلك مبنى واحداً يضم كل كلياتها وأقسامها، أو ما يعرف بالحرم الجامعي، بل تتوزع على عدة بنايات في الشوارع المحيطة بشارع توتنهام كورت رووود.

لقاؤهما الأول كان في محل كبير لبيع الكتب في شارع "توتنهام كورت رود"، الذي يعج بالمحلات التجارية الفخمة لبيع الأثاث والأجهزة الكهربائية والكتب والأدوات المنزلية. في يوم قررت سهام أن تدخل محلاً كبيراً لبيع الكتب، بعد أن رأت الإعلان الضخم على واجهته عن تنزيلات في أسعار الكتب، اسمه "فويلز"، لتكتشف لاحقاً أنه من أكبر وأشهر محلات بيع الكتب في أوروبا. حين دخلت سهام المحل، كان هو يقف قرب المدخل حيث تراكمت الكتب المعروضة للبيع بتخفيضات مغرية. رأى امرأة ممشوقة القد تتنقل بين رفوف الكتب. وجد نفسه يلاحقها بنظراته. كان فيها جمال من نوع خاص، بشرة تميل للبياض وشعر كستنائي طويل ربطته بمشبك جميل في أسفل رقبتها. دارت تقلّب عينيها بين رفوف الكتب ثم توقفت أمام أحد الرفوف القريبة منه. التقطت كتاباً كبيراً يحمل غلافه صورة أحد أهم رموز المعمار في بريطانيا، السير كريستوفر رين. كان كتاباً عن حريق لندن الشهير في القرن السابع عشر وعن المباني العظيمة التي صممها كريستوفر رين ليعيد إلى لندن بعضاً مما احترق من معالمها.

بدأت تقلب الكتاب. وجد نفسه يقترب منها. توقف وهو يقول بصوت خفيض: "اختيار جيد سيكون قراءة ممتعة ومفيدة." أحس أنها لم تنتبه أن الكلام موجه لها. كرر جملته وهو ينحني باتجاهها. شيء اعتاده مثل كل طوال القامة. رفعت عينيها نحوه. حاول أن يبتسم رغم ارتباكه من نظراتها الفاحصة وجمال عينييها العسليتين. استجمع شجاعته وعاد يقول بأدب: "آسف يا سيدتي أرجو أن لا أكون قد أزعجتك لكنني معجب جداً بالكتاب الذي تحملين بين يديك لأنه يحكي عن مرحلة مهمة من تاريخ معمار مدينة لندن. فرغم أن حريقها الشهير أتى على بعض معالمها، لكنه مثل كل ضار نافع، منح المعماري الفذ السير كريستوفر رين فرصة إعادة بناء أجزاءٍ من مدينة لندن بطريقته الفذة ليترك بصمته المتميزة في معالم صارت رموزاً للتطور المعماري للمدينة."

كانت تقف أمامه صامتة تستمع إليه باهتمام، رغم أنه فاجأها بتوجيه حديثه لها دون سابق معرفة. خيل إليه إنها إمرأة قوية الشخصية. حاول أن يخمن عمرها. أواسط الثلاثينيات. جاء صوتها رائقاً وهي تقول بشيء من الخجل: "نعم قرأت للتو بعضاً مما ذكرت على غلاف الكتاب." أحس برغبة جارفة في مواصلة الحديث معها. أسرع يقول: "هل تعرفين يا سيدتي ما هو سر الإبهار في كل ما بناه كريستوفر رين؟ هو أنه درس الفيزياء الأرسطوطالية، وطبق مفاهيمها على كل ما صمم من معمار." قلّبت الكتاب بين يديها وهي تقول باسمة: "عذراً لكن ما هي الفيزياء الأرسطوطالية؟" أتسعت ابتسامته. أخذ نفساً عميقاً وهو يقول: "هي قانون أرسطو للتغيير الذي يشمل كل ما حولنا من أحياء وجماد وكل ما في السماء من نجوم وكواكب. هو التغير

تبعاً للمكان والحجم والكم، أو ما يسميه المعماريون حركة المكان. كل ما بناه كريستوفر رين يموج بالحركة لذلك يبهرنا حين نقف أمامه متأملين." همست: "حركة المكان. يا له من تعبير. تتحدث بثقة العارف، هل أنت مهندس معماري؟" تضاحك: "ليس تماماً، أنا أستاذ هندسة المدن في جامعة لندن، وأعتذر عن تطفلي، لكنني شعرت بسعادة حقيقية حين رأيتك تقلبين هذا الكتاب، وأردت أن أوكد لك أنه كتاب يستحق القراءة فعلاً." أحنى رأسه محيياً وابتعد. لم يدر في خلده لحظتها أنه يعيش لحظة مهمة في حياته، اللقاء الأول مع المرأة التي ستشاركه ما بقي سنين العمر.

هاهي تجلس قبالته في كرسيها المفضل القريب من الشباك حيث يحلو لها أن تقرأ. لكنها لا تقرأ بل تجلس صامتة وكتابها الذي كانت تقرأ فيه بالأمس مستكين على الطاولة الصغيرة قربها. لم تجلس بعيداً عنه صامتة لا تقرأ ولا تتابع شيئاً على التلفزيون وتبدو حزينة مهمومة وقد أسندت رأسها على كفها تبحلق في السجادة الصغيرة الممتدة أمامها؟ ناداها ضاحكاً: "سهام حبيبتي مالك في شي زاعجك؟" أنتظر أن ترفع رأسها لتجيبه، لكنها لم تفعل ولم يبدو عليها أنها سمعت ما قاله. عاد يكرر جملته بصوت أعلى وأوضح. ظلت على إطراقتها. تضاحك: "حبيبتي سهام مالك ليش ما عم بتردي علي؟" مرت لحظات قبل أن ترفع رأسها وتنظر إليه دون أن تبادله ابتسامته العريضة التي رسمها على وجهه ليشجعها على الكلام. بدت حائرة مسهمة النظرات. تأملته لحظة وعادت لإطراقتها.

رن جرس الباب. قامت من مكانها مسرعة. سمعها تتحدث إلى منى في الممر القريب بصوت متهدج. مرت لحظات. دخلت منى زوجة صديق عمره عبد الواحد الغرفة. سارت نحوه. وقفت قربه وهي تتفحصه بنظراتها. همس باسماً: "كيفك مُنى وينو عبد الواحد ليش لهلق ما بيَّن؟" انحنت عليه. بدا وجهها جامداً وهي تقرّبه من وجهه. أمسكت بمعصمه الأيسر وراحت تنظر في ساعة يدها دون أن تقول شيئاً أو تبتسم أو حتى تجيب على سؤاله عن عبد الواحد. تركت معصمه. وضعت يدها على رأسه همست لسهام: "نبضه طبيعي وما عنده حرارة. خلينا نتصل بيهم وسأشرح لهم الموقف." تساءل من هم الذين تريد أن تتصل بهم؟

خرجت منى إلى الممر القريب تتبعها سهام وبدأت تتكلم من الهاتف الأرضي. سمعها تجيب بنعم ولا. رددت عنوان البيت. مرت لحظات قبل أن تدخل الغرفة من جديد تتبعها سهام. اقتربت منه مسّت جبينه. وعادت تجلس قرب سهام. همهمت بضع كلمات لم يسمعها. تنهدت سهام بعمق وهمست لها بضع كلمات. رن جرس الباب من جديد. أسرعت سهام تفتحه. سمع صوت عبد الواحد يعتذر عن التأخير. قامت منى

من مكانها وخرجت من الغرفة. سمع همساً يدور بين الثلاثة في الممر القريب. دخل عبد الواحد الغرفة تتبعه سهام ومنى. وقف قربه يتأمله وقد بدا عليه القلق. صاح فيه ضاحكاً: "شو قصتك يا عبد الواحد ليش تأخرت؟ أنا عارف إنك ختْيرت وصرت زيّ بتلاهت لما بتمشي، بس شو قصتك اليوم وشو جبتلنا معك؟" ظل صديقه يبحلق فيه بصمت. بدا منظره غريباً. صاح فيه: "بقولك شو جبتلنا معك من المزرعة اليوم؟ آخر مرة الفقوس كان كثير طيب." لكن حتى هذا السؤال الذي يثير عادة حماسة عبد الواحد للحديث ويجره إلى الخوض في تفاصيل ما يزرع في مزرعته الصغيرة، قطعة الأرض التي يؤجرها من بلدية لندن ويقول عنها إنها بدل ضائع عن أرضه التي سرقتها إسرائيل، لم يستفزه للحديث عن موضوعه المفضل، الزراعة. فعبد الواحد مهندس زراعي، ولد لأسرة من الفلاحين في طولكرم، أي إنه فلاح إبن فلاح. مزرعته الصغيرة توفر الكثير من الخضروات الموسمية والفواكه الطازجة التي يزرعها بدون اسمدة كيميائية، ويكون طعمها لذيذاً متميزاً لا يشبه ما يباع في محلات السوبرماركت.

تأمله من جديد. هو صديقه منذ سنين العمل في الكويت. عرفه أيام الدراسة في القاهرة، خلال اجتماعات اتحاد الطلبة الفلسطينيين، لكن الظروف لم تتح لهما تعارفاً يولّد صداقة. بعد التخرج وجده في الكويت يعمل مثله ليجمع ما يكفي لإتمام دراسته العليا، وتوطدت بينهما صداقة دامت سنين العمر، فهو إنسان لطيف المعشر حاد الذكاء عاش تجارب مريرة كفلسطيني أرغمته ظروف الحياة على التعامل مع فلسطينيته في مواجهات مباشرة مع المحتل، دخل سجنه وذاق مرارة الإبعاد عن الأهل والوطن وهو في سنين الشباب المبكر. ابتسم له. هو بلا شك إنسان متميز في كل ما يقول ويفعل، فهو مهندس زراعي ماهر وزوج وأب معطاء، وإنسان جميل يكسب بسرعة حب من يعرفونه. طوله الفارع وجسمه الضخم، يضفي عليه طيبة ولطفاً. أما اسمه، فمميز لا يشبه الأسماء الأُخرى. فهو عبد الواحد عبد المعطي عبد الرزّاق، ثلاثة أسماء مركبة متتابعة. السبب كما يشرحه أن جده عبد الرزّاق، أو كما يلفظه على الطريقة الفلاحية الفلسطينية، عبد الرزّاك[1]، أراد لابنه اسماً مهماً كاسمه، فأسماه عبد المعطي. أبوه أراد أن يمنح ابنه ما منحه إياه أبوه، شرف الاسم الوجيه المركب، فأسماه عبد الواحد. كم تمازحا على هذا الاسم المعقد. في إحدى المرات أراد أن يقدمه لصديقة إنكليزية. همس له ضاحكاً: "كيف بدها تلفظ كل هذي الأسماء المركبة يعني شو بدها تناديك؟" أجابه عبد الواحد بكل جدية: "قدمني كمستر أبدول. الإنكليز يختصرون الأسماء العربية التي تبدأ بعبد، بأبدول وأنا إسمي ثلاثة أبدول."

[1] اللهجة الفلاحية الفلسطينية تقلب القاف كافاً.

عاد يبتسم له. تأمله عبد الواحد بصمت وابتعد ليجلس قرب سهام مطرقاً. لفّ المكان صمت لم يعتده حين يجتمعون هم الأربعة، هو وسهام وعبد الواحد ومنى، الفرسان الأربعة كما يسميهم أصدقاؤهم. وجّه كلامه لعبد الواحد: "شو؟ مالك يا رجل؟ مش عاداتك تقعد ساكت هيك ومدلدل بوزك." لكن عبد الواحد لم يستجب وظل على إطراقته. تساءل ما به. ما بهم كلهم يكلّمهم ولا يردون. كأنهم لا يسمعونه. لم هم صامتون هكذا، لا يتبادلون الأحاديث بينهم كما يفعلون كلما التقوا؟ ما بهم، يجلسون بوجوه متجهمة لا ينبسون "ببنت شفة" كما كانوا يقولون في وصف الصمت، تعبير لم يعد دارجاً في لغة عصر الكومبيوتر، لكنه يناسبهم تماماً بل هناك تعبير آخر أشد دقة في وصف من يجلسون صامتين، مازال يذكر الشرح الذي قدمه له المعلم في مدرسة المخيم في غزة، حين قال إنه مثلٌ يُضرب للحلماء وأهل الأناة حين يقفون في صمت بلا حراك فيقال وكأن على رؤوسهم الطير، أي أنهم يخشون الحركة لئلا يطير الطائر الذي يقف على رأس كل واحد منهم. أفلتت منه ضحكة وهو يتأمل عبد الواحد في إطراقته ويتخيل طيراً واقفاً على شعره المجعد.

دار بعينيه بينهم من جديد. أقلقته فكرة ألحت عليه، لم هو مستلقٍ على الصوفا الوثيرة فيما يجلس الجميع حوله صامتين. حاول أن ينهض من رقدته وجد جسمه كسولاً لا يطاوعه. حاول أن يجلس لكنه شعر بثقل في ساقيه أرغمه على البقاء على استلقائه المريح. فجأة رفعت سهام رأسها وتأملته بصمت. كان في عينيها أثر دموع تحاول إخفاءها. أحس بالانزعاج. همس: "مالك يا سهام؟ شو في يا حبيبتي؟" هزت رأسها وعادت تحنيه وتغرق في صمتها. استغرب منها ذلك وقرر أن يكف عن سؤالها عما بها، ويتركها هي ومنى وعبد الواحد يفعلون ما يحلو لهم. هي تجلس صامتة حزينة ومنى تمسح على ظهرها وهي تهمهم كلمات غير مفهومة. فجأة قام عبد الواحد من مكانه. ألقى نظرة سريعة من النافذة القريبة. دار حول نفسه ووقف قربه وقد أحنى رأسه. بدا مضحكاً بوجه الممتلئ المنحني نحوه وقد تهدل خداه، وكرشه العتيد. همس له: "شو يا عبد الواحد مالك يا خوي ليش عم بتبحلق فيّ؟" لكن عبد الواحد لم يعنيه ما قاله له. دار حول نفسه من جديد وعاد يجلس في مكانه. همست له سهام شيئاً. ربت على كتفها وهو يهمهم بضع كلمات لم يسمع منها شيئاً. ترى ماذا قال لها؟ هل سألها لم هي حزينة هكذا، ولم اختفت ابتسامتها الجميلة؟ تلك الابتسامة التي جذبته لها مذ رآها لأول مرة وسحرته يوم جمعهما لقاء غير متوقع.

كان يوماً مشمساً دافئاً حين ذهب كعادته لتمضية استراحة الغداء في "ويتفيلد غاردنز،" الحديقة الصغيرة على جانب شارع توتنهام كورت رود. جلس على المصطبة الخشبية التي يحبها والتي تواجه الجدارية الضخمة التي تطل على الحديقة من البناية القريبة. أخرج من كيس ورقي صغير الساندويج الذي اشتراه من المحل القريب مع علبة من عصير البرتقال. قضم لقمة وبدأ يدور بعينيه في الجدارية التي تعلو لأكثر من عشرة أمتار وتطل منها وجوه كثيرة، لرجال ونساء من مهن مختلفة، باعة وصناع مهرة وأطباء وممرضات وفنانون تشكيليون، عملوا وقدموا خدماتهم لأهالي هذا الجزء المهم من مدينة لندن، لذلك أثارت هذه الجدارية اهتمام الصحافة حين تم إنجازها عام ثمانين وأجمع النقاد الفنيون على أنها عمل ذكي ناجح أضفى خصوصية وتميزاً على المنطقة.

مرت فتاة من أمامه وجلست على الطرف الآخر للمصطبة الخشبية، وبدأت تفعل ما يفعله هو، تتأمل الجدارية الضخمة. التفت نحوها. التفتت نحوه بحركة لا إرادية. رأى وجهها. أحس بقلبه يهوي بين ضلوعه. كانت نفس الفتاة التي التقاها في محل بيع الكتب. صاح بفرحة حقيقية: "آوه هالو. هذا أنت؟ جميل أن نلتقي من جديد. هل أعجبك الكتاب عن حريق لندن؟" همهمت وقد اتسعت ابتسامتها: "أهلاً. لم أنته منه بعد. نصيحتك كانت في مكانها. مشكلته الوحيدة أنه كبير الحجم وثقيل لا يصلح للحمل في حقيبة

اليد." أسرع يقول: "هذه مشكلة الكتب المجلدة الكبيرة، لذلك ينتهي بها المطاف في أوكازيون الكتب. لكن ما يغفر لها ثقل وزنها وكبر حجمها، أنها مليئة بالصور الملونة والتخطيطات." تضاحكت: "أنا أحب الكتب بغض النظر عن حجمها. ربما لأنني أحببت القراءة في سن مبكرة وصرت ألتهم كل ما أجده حولي من كتب، كبيرة، صغيرة، ملونة، أو بلا صور." جاراها في ضحكها: "أظننا كلنا عشنا نفس التجارب مع القراءة. نحن جيل لم يكن لديه سوى القراءة ليكتشف العالم من حوله." عادت تقول: "أنا أزور لندن لأول مرة. كنت في الايام الأولى أتهيب من دخول المحلات التجارية الضخمة. ظننت أنهم لا يسمحون بالفرجة دون شراء شيء. ثم فهمت أن الفرجة مهمة للإغراء بالشراء وأن أصحاب المحلات يشجعون الناس عليها فصرت أدخل المحلات أتفرج. ويوم اشتريت الكتاب كنت أدخل محل الكتب لأول مرة."

بدت جميلة وهي تتحدث بطلاقة. همهم باسماً: "الإنكليز يدخلون المحلات يجربون الملابس والأحذية والقبعات في وسط المحل ويرشون العطور على أنفسهم، وينامون على الأسرة ويتركون أولادهم يجربونها لأغراض القفز العالي. وحين يسألهم أحد الباعة إن كانوا بحاجة لأي مساعدة، يجيبون بكل بساطة، شكراً نحن فقط نتفرج." تعالى ضحكها، وهي تخرج من كيس ورقي الساندويج الذي أحضرته معها: "أنا اليوم جئت لأتفرج على الجدارية التي أشاهدها من بُعد كلما مررت أمام الحديقة. مجرد فرجة." قضمت من الساندويج وبدأت تلوك لقمتها ببطء. فتحت زجاجة العصير التي في كيسها. شربت منها وعادت تدور بعينيها في الجدارية.

أحس أنه يريد أن يقول شيئاً أي شيء كي يتواصل الحديث بينهما. فكر لحظة. قرر أن يحدثها عن الجدارية التي جاءت خصيصاً لتتفرج عليها، لكن عليه أن ينتقي الكلمات التي تجعل ما سيقوله لائقاً للتواصل وليس محاضرة عن الجدارية وتاريخ المنطقة. تنحنح وقال بصوته الهادئ: "هذه الجدارية أثارت الاهتمام منذ انجازها، لكبر حجمها والوانها الزاهية والوجوه المطلة منها والرسالة التي تريد أن توصلها. اسمها كما تعرفين "فيتزروفيا"، نسبة لساحة قريبة اسمها فيتزروي، كانت المشارب المحيطة بها في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي أمكنة تجمع الشعراء." ابتسمت دون أن تلتفت إليه: "نعم قرأت عنها." أحس أنه لم يوفق في مسعاه وأنه ألقى محاضرة لا قيمة لها وكرر معلومات تعرفها وأنه ثقيل الدم. قرر أن يغالب رغبته في الحديث معها. صمت لحظة ثم وجد نفسه رغماً عنه يلتفت نحوها. كانت مازالت تتأمل الجدارية. همهم: "بالمناسبة، هذا مكاني المفضل لاستراحة الغداء آتي إليه باستمرار." استدارت نحوه. كان على وجهها ابتسامة عريضة. همست بالعربية: "هل تتكلم العربية؟"

كان قد قضم لقمة كبيرة من الساندويش. وضع يده على فمه يخفي ما بداخله وهو يقول: "يا إلاهي أنت تتكلمينها؟" تضاحكت: "طبعاً أنا فلسطينية." ابتلع لقمته بعجالة وصاح: "مش معقول، مش معقول. لا لا هذه صدفة لا تصدق." مسح يده بالمنديل الورقي، ومدها مصافحاً وهو يقول: "أقدم لك نفسي، غريب عطا الله، فلسطيني أيضاً وأعمل أستاذ مشرف في هندسة المعمار في جامعة لندن". وضعت يدها في يده. ضغط عليها بقوة. تضاحكت مقلدة طريقته في تقديم نفسه: "سهام محمد، فلسطينية، محاضرة في دورة لتدريس الإنكليزية المحكية، التي ينظمها المجلس الثقافي البريطاني في جامعة لندن." أبقى يدها في يده وراح يهزها برتابة وهو يقول ضاحكاً: "أهلاً أهلاً سهام، ما أحلى هذه الصدفة، ما الذي جعلك تسألينني إن كنت أتكلم العربية؟" قالت باسمة وهي تسحب يدها من قبضته: "أظنه إصرارك على الحديث معي، جعلني أشعر أن لكلماتك رنين خاص. قلت لنفسي الشب لازم يكون من بلادنا لأنه عنده فضولنا. إحنا بنسأل الناس في الشارع عن أصلهم وفصلهم وأين يعملون وشو إسم أولادهم." تعالى ضحكه. عادت تقول: وبعدين الإنكليز ما بيعرفوا يبحلقوا." احمر وجهه قليلاً. تأمل صفاء بشرتها والتماع عينيها ونعومة شعرها الكستنائي. ابتسم وكأنه يقول لها: "بحلقة بحلقة، مش قادر ما أبحلق."

وجد نفسه رغماً عنه مأخوذاً بهذه الفلسطينية التي وضعتها الصدف في طريقه. زحف على المصطبة الخشبية قليلاً باتجاهها وهو يقول ممازحاً: "حين رأيتك في محل بيع الكتب، أدركت أنك لست إنكليزية، لكنني لم أستطع أن أنسبك لمكان محدد. كان في عينيك شيء لا يشبه ما اعتدت من وجوه." تضاحكت: "أنا فلسطينية حتى نخاع عظمي، ولدت في بيروت بعد هجرة أهلي من عكا وغادرتها وأنا في الثالثة عشرة من عمري إلى بغداد حيث كان يعمل والدي." أسرع يقول: "يا سلام، يعني أنتي عكاوية جليلية، تعيش في بغداد؟" أسرعت تقول: "لا لا لم أعد أعيش في بغداد. غادرتها بعد أن أنهيت دراستي الجامعية. كانت الحرب العراقية الإيرانية على أشدها، فانتقلت الشركة التي يعمل فيها والدي إلى الكويت، وفضّلت أمي أن نذهب للعيش في عمان، على البقاء في بغداد. كان الخيار الوحيد المعقول، فبيروت لم تعد ممكنة بعد أن اشتعلت فيها الحرب الأهلية."

تصاعد فضوله: "وماهي بالضبط الدورة التي تُدَرسين فيها في لندن؟" لام نفسه لأنه تسرع في طرح سؤاله بطريقة من يحقق معها. أسرع يصحح الخطأ: "آسف أقصد هل لديك عمل دائم مع جامعة لندن؟" همهمت باسمة: "لا طبعاً. لدي عمل لشهرين، ستة أسابيع للدورة التدريبية لإعداد مدرسي اللغة الإنكليزية المحكية لغير الناطقين بها. وأسبوعان للإعداد واحد في بداية الدورة والثاني عند انتصافها." همهم وكأنه يتشبث بأن

يبقى الحديث بينهما دائراً: "ما هو المقصود بالإنكليزية المحكية؟" أسرعت تقول بحماس دافق: "تعلم اللغة قراءة وكتابة وحديثاً دون التعمق في آدابها من شعر ورواية ومسرحية. أي أن الطالب لا يدرس الأدب الإنكليزي، بل يطلع على نماذج تساعده في تعلم أساليب التعبير، لكن الهدف الأساسي هو القدرة على التحدث والكتابة بالإنكليزية." توقفت فجأة عن الكلام. همهمت: "نسيت نفسي وانسجمت في التفاصيل." أسرع يقول بصوته الرائق: "أبداً يا سهام. أنا مستمتع جداً. وهل تزورين والدك في الكويت؟ أنا عملت فيها لثلاث سنوات بعد تخرجي من الجامعة." تساءلت: "هل أحببتها؟" همهم: "أحببت ما وفّرت لي من أمان ورزق وأصدقاء. لكنها كانت بالنسبة لي جواز عبور لضفة ثانية." تضاحكت: "أظن أن أبي يتفق معك في الرأي. هو ترك الكويت بعد أن غزاها صدام حسين، غادر مع من غادروا من فلسطينيين ويعيش الآن معنا في عمان." همهم ضاحكاً: "ما أغرب عالمنا، صدام حسين يغزو الكويت، والكويت يعاقب الفلسطينيين بطردهم لأن ياسر عرفات قبّل صدام مهنئاً بغزوته. نسيوا إنو ياسر عرفات كثير بيحب يبوس."

أفلتت منها ضحكة: "وماذا عنك أنت؟ أستاذ في جامعة لندن. شيء رائع. هل تعيش في لندن منذ فترة؟" أسعده أنها مهتمة بمعرفة شيء عنه. أسرع يقول: "منذ عشر سنين. جئتها من القاهرة لأحصل على شهادة الدكتوراه. أنا تخرجت من جامعة القاهرة وبعد العمل لثلاث سنين في الكويت، عدت لأكمل تعليمي في القاهرة. ثم عملت بضع سنوات في القاهرة في شركة أجنبية للتصميمات الهندسية، وجمعت مبلغاً يتيح لي أن أعد رسالة الدكتوراه في جامعة لندن. وجدت عملاً في الجامعة. صرت الطالب الأستاذ لسنتين قبل أن أحصل على شهادة الدكتوراه." تأملها لحظة وعاد يقول: "أنا من غزة. أهلي لجأوا إليها من يافا. هل زرت يوماً غزة؟" تلاحقت أنفاسها: "لا لم أزر أي مدينة فلسطينية، مع أن خالتي تعيش في القدس. لكننا في الصيف الذي كنا ننوي فيه زيارتها، حدثت حرب السبعة وستين واحتلت إسرائيل القدس. بعدها، لم يعد ممكناً أن نذهب لزيارتها، صارت هي تأتي إلى عمان مع زوجها وأولادها لفترة قصيرة وتعود خائفة أن لا يُسمح لها بدخول القدس، وتظل تردد إن من يغيب طويلاً عن القدس يمكن أن يمنعه الإسرائيليون من العودة إليها." صاح: "طبعاً طبعاً هم يضيقون الخناق على كل من يحمل هوية القدس ولا يعيش فيها. يقولون له إن كنت تعيش في بيت لحم مثلاً، فلا حاجة لك بهوية القدس. مشروعهم هو تهويد القدس لذلك كانوا بعد أن احتلوها عام سبعة وستين، يقدمون لكل من ظل من يهود في القدس في جبل المشارف في القدس الشرقية، كل ما يحتاجونه من طعام وشراب ولوازم أخرى لا تتوفر في أسواقها."

همست كأنها تحدث نفسها: "أنت محظوظ لأنك عشت في فلسطين التي لا أعرفها أنا ولم أزرها مطلقاً." تضاحك: "أنا لم أعش في فلسطين يا سهام، أنا ولدت في مخيم للاجئين الفلسطينيين في غزة، أمي لم تكن تدري إنها تحملني في بطنها في رحلة الهجرة من يافا إلى غزة. كانت لاتزال عروساً حين هُجّرت من يافا إلى مخيم جباليا في غزة. وحين ولدتني أسماني أبي غريب لأنه كان يشعر بالغربة." صمت لحظة وعاد يقول: "أنا من مواليد الشهر الأخير من عام ثمانية وأربعين." همست: "أنت ولدت في مخيم للاجئين الفلسطينيين في فلسطين. لا أستطيع أن أفهم لم هناك مخيمات للفلسطينيين حول المدن الفلسطينية؟ لم لا يعيشون في المدن التي لجئوا إليها. أفهم أن عددهم كان كبيراً في البداية، ولكن مع مرور السنين كان يجب أن يعيشوا في المدن ويحملوا هوية لاجئ من يافا أو عكا. تماماً كجواز السفر الأردني الذي أحمله، فهو بلا رقم وطني، أي لا يحق لي الانتخاب، أي أنني لاجئة." لف ذراعه على ظهر المقعد الخشبي وسرح بنظراته في المكان: "نعم هو شيء غريب فعلاً. لكن هذا هو الواقع يا سهام، هناك مخيمات للاجئين الفلسطينيين في رام الله ونابلس وغزة وطولكرم. هذا للأسف هو حالنا. أظنها الكذبة التي رددوها لسنين، عدم السماح للفلسطيني بالاستيطان كي يعود لأرضه. لا عاد ولا شيء، فقط عاش ذل المخيم."

كانا فلسطينيين يلتقيان في حديقة صغيرة في قلب لندن على غير ميعاد، ويبدأن تعارفهما من كونهما فلسطينيين. في طفولته، كان يظن أنها بداية قوية للصداقة والمعرفة. مع الأيام اكتشف أن الفلسطينيين قلما يتشابهون لأنهم تلونوا بالأماكن التي عاشوا فيها، والظروف التي علمتهم معنى أن يكونوا فلسطينيين، رغم أنهم جميعاً لم يتخلوا عن فلسطينيتهم أو عن رموزها، الزعتر والزيت والمفاتيح. هو ابن مخيم في غزة وهي تربَّت في الشتات، هو يعرف معنى ذل الفقر والعوز، وهي ذاقت معنى البعاد عن الارض والبكاء على المدن التي هُجروا منها، التي تمثل كل واحدة منها فلسطين دون زيادة أو نقصان. فلسطينيو المدن الفلسطينية التي لا تدخل ضمن حدود إسرائيل، مثل عبد الواحد ومنى، لم يعرفوا معنى التشرد والابتعاد عن القرية التي عاش فيها الآباء والأجداد، لكنهم عانوا في سنين الاحتلال من السجن والإبعاد. أما فلسطينيو المدن التي أصبحت منذ عام ثمانية وأربعين جزءاً من دولة إسرائيل، فعليهم أن يصارعوا ليظلوا على أرض لم تعد تُكّنى بهم رغم أنها الأرض التي عرفها الآباء والأجداد.

قام من جلسته. وضع الكيس الورقي الفارغ في سلة المهملات القريبة. وقف أمامها وهو يقول: "محتاجين قعدة طويلة ورايقة على فنجان قهوة أو شاي. الآن عليَّ أن أعود لعملي، لدي محاضرتان. عملي ينتهي كل يوم عند الساعة السادسة. بعدها أذهب إلى مكتبة الجامعة، هل تعرفين مكانها؟" أسرعت تقول: "طبعاً."

صاح: "عظيم، مُرّي عليَّ بعد أوقات الدوام، وسأعزمك على أحلى فنجان قهوة. سأنتظرك يا سهام." مد يده مصافحاً. أحس بيدها دافئة ناعمة. وقفت أمامه وسارت معه نحو باب الحديقة. توقف عند البوابة الحديدية. همس باسماً: "أتمنى أن يكون لحديثنا بقية سأنتظرك يا سهام." التمعت عيناه الكبيرتان بابتسامة وسار مبتعداً. وضعت حقيبة يدها على كتفها وسارت في الاتجاه الآخر نحو المبنى الذي تعمل فيه.

أنتظر أن تزوره في مكتبة الجامعة. مرَّ يومان دون أن تفعل. حاول أن يجد لها الأعذار، ثم أقنع نفسه أنه الموروث النسوي التقليدي من أن المرأة يجب أن لا تسعى للتقرب من الرجل بل تدعه يكون البادئ بالتعبير عن اهتمامه. هو لا ينكر أنها أعجبته وشغلت تفكيره ويتمنى أن يلتقيها مرة ثانية، لكنه لا يريد أن يفرض نفسه عليها، لذلك ترك لها الخيار في زيارته في مكتبة الجامعة وأكد لها أنه يتطلع لرؤيتها من جديد. لا يريد أن يتصرف معها كرجل أعجبته امرأة، فهو لا يعرف عنها شيئاً، قد تكون مرتبطة أو حتى متزوجة. صحيح أنه أعجبه كل ما فيها، شكلها، صوتها، طريقة كلامها، لكنه لا يريد أن يتسرع كي لا تنفر منه. ثم هو لم ينسى أنها اكتشفت أنه عربي، لأنه ألح في محاولاته للحديث معها. لن يلاحقها، واضح أنها لا تحب ذلك.

مر يوم آخر. وجد نفسه يتساءل بجدية، أهي متزوجة أو مخطوبة؟ ربما هذا هو السبب. لكنه لم يرَ في إصبعها خاتم زواج. ثم هي قالت إنها تعيش في بيت أهلها في عمان. ربما تكون مرتبطة عاطفياً.

مر يوم آخر أعاد فيه على نفسه كل تساؤلاته. في اليوم التالي، تحرّى عن الدورة التي تشارك فيها وعرف مكانها في قسم اللغات والآداب، في المبنى القريب من كلية الهندسة. فكر طويلاً وقرر أن لا يذهب إليها. سينتظر، وإن كانت تريد التواصل معه، فستأتي. ذهب إلى الحديقة الصغيرة التي التقيا فيها وانتظرها على نفس المقعد الخشبي. زار محل بيع الكتب وتجول فيه وتوقف طويلاً أمام رفوف الكتب مخفضة الأسعار. تجول في الشوارع المحيطة بمكان عملها علّه يلتقيها صدفة، لكن كل جهوده لم تثمر. في النهاية، اعترف لنفسه أنه يفتقدها، وأن به رغبة جارفة لسماع صوتها وتأمل وجهها الجميل ورؤية ابتسامتها المشرقة. عاد يقول لنفسه، عليه أن ينتظر وستأتي إن كانت راغبة بالتواصل معه.

في مساء يوم خريفي مطير، كان يجلس كعادته في مكتبة الجامعة على الطاولة القريبة من الباب يقرأ في كتاب، وجدها تقف أمامه وعلى وجهها ابتسامة. تسارعت دقات قلبه وهو يهمس بفرحة حقيقية: "أهلاً أهلاً." قام من كرسيه. سحبها خارج المكتبة وهو يقول: "وينك يا بنت الناس؟ صار لي كام يوم انتظرك. ألم نتفق أن تأتي إليَّ هنا في المكتبة لنكمل ما بدأنا من حديث؟" كانت تقف أمامه صامتة تبتسم. انتبه إلى ارتعاشة جسمه. لقد أفلت منه الكلام. لم يحسن اختيار ما يقوله، سبق لسانه عقله. عليه أن يستعيد هدوءه. رسم على وجهه ابتسامة كبيرة وهو يقول بصوته الهادئ: "المهم كيفك يا سهام؟" همست باسمة: "تمام يا غريب. كان لدينا اجتماعات مسائية للتحضير للأسبوع الرابع من الدورة. غداً سنبدأ النصف الثاني. فالدورة لستة

أسابيع كما قلت لك." أحس بقلبه يهوي في ضلوعه. شغله خاطر جديد، ستنتهي الدورة قريباً وتعود إلى عمان. المشكلة أنه أثقل عليها بعتابه وعليه أن يهدأ ليفهم ما يدور في خَلَدها. تنحنح من جديد وعاد يقول: "لا تواخذيني يا سهام كنت كثير حابب أشوفك بعد حديثنا في الجنينة". خيل إليه أن حمرة خفيفة لونت وجهها. همست باسمة: "هيني جيت. كيفك يا غريب؟" تضاحك، هذه بداية جديدة للحديث: "تمام، زي ما تركتيني يا سهام بس هلكان على فنجان قهوة. تعالي نشرب فنجان رايق. أنا عازمك على قهوة وشاي وكازوزة كمان." دخل المكتبة. وضع كتابه في حقيبته اليدوية وحمل معطفه وخرج من جديد. أمسك يدها وهبط بها السلالم إلى الطابق الأرضي. ملأه إحساس بدفء ونعومة يدها، لكنها افلتتها بلطف وهي تقول: "وين رايحين؟ عندك مقهى مفضل؟" همس: "هذا اللي هناك." عبرا الشارع إلى المقهى. جلسا متقابلين حول طاولة صغيرة لشخصين قرب الشباك الكبير المطل على الشارع. طلبا فنجانين كبيرين من قهوة الإسبريسو.

تأملها باسماً. أحس أنه لا يعرف ماذا يقول. أرعبته فكرة أن يكون ثقيل الدم. ألح عليه السؤال، متى تعود لعمان، لكنه قرر أن لا يسأله. أخذ رشفة من قهوته وهمس: "شو يا سهام." تضاحكت: "شو يا غريب؟" قرب وجهه منها: "احكيلي يا سهام عنك، عن بيروت وبغداد. أنا ما زرت بغداد ولا بيروت." تضاحكت: "وأنا ما زرت القاهرة وهاي أول زيارة لي إلى لندن." أسرع يقول: "سأحكي لك كل التفاصيل عن سنين العيش في القاهرة، دراستي وعملي وزواجي الذي لم يدم وأولادي نور وناهد. وكل ما تريدين عن لندن، لن أخفي عنك شيئاً، لكنني أظن أن التعارف بيننا يجب أن يبدأ بك، السيدات أولاً كما يقال." خيل إليه أنه تسرَّع في الإشارة إلى زواجه وأولاده. هدأ نفسه بأنه يريدها أن تعرف عنه كل شيء. تضاحكت وهي تقول إنها ستبدأ على الطريقة التقليدية بالتسلسل الزمني. هي ولدت في شقة في منطقة برج البراجنة في بيروت، بعد النكبة بخمس سنين، تقاسم العيش فيها والداها وشقيقتها هيام، مع جدتها لأمها وخالتها هبه. فوالدها هو ابن عم أمها، الذي رباه جدها لأمها بعد وفاة أبيه في حادث سيارة على الطريق بين عكا والناصرة، وتعهد برعايته والإشراف على تربيته وتعليمه، لكنه رفض الزواج من أرملة أخيه كما كان متعارفاً عليه.

بعد بضع سنين توفيت أم الصبي الصغير، وجاء محمد الذي لم يكن يتجاوز التاسعة من عمره، ليعيش في بيت عمه الذي تزوج وأنجب ابنتين، وصار محمد الابن الأكبر للعائلة. أنهى تعليمه في عكا وحصل على شهادة في المحاسبة من القدس، وبدأ يعمل مع عمه في إدارة أعماله التجارية. ثم توفى جدها إثر نوبة قلبية حادة مفاجئة، فوجد محمد نفسه وهو ما يزال شاباً يافعاً المسؤول عن رعاية شؤون الأسرة وكل أعمال عمه

التجارية. وحين غادرت الأسرة مع من غادروا مدينة عكا عام ثمانية وأربعين، سلّم كل ما كان في حوزته من أموال وعقود تجارية لزوجة عمه لتتدبر بها شؤون الأسرة، وعبر مع الأسرة الحدود إلى لبنان.

كانت تتحدث باسترخاء وعفوية. صمتت لحظة وعادت تقول: "أنا عشت طفولة سعيدة جداً يا غريب في تلك الشقة في برج البراجنة، بين أبي وأمي وشقيقتي هيام وجدتي وخالتي هبة، وتعلمت من جدتي قصص الحنين والدموع والحسرات على الأرض التي تركوا ورائهم، وحكايات عن البيوت والمفاتيح." همهم: "كلنا في الهم واحد، كل الفلسطينيين أغلقوا أبوابهم وحملوا مفاتيحها. أمي أعطتني مفتاح أتبرك به في القاهرة. حملته معي وعلقته في شقتي." تضاحكت: "برافو ولد مطيع ومرضي." تأملها باسماً. هي بلا شك امرأة جميلة.

عادت تقول: "لكن الأيام فرقتنا، تزوجت خالتي هبه طبيباً مقدسياً وذهبت لتعيش معه في القدس ثم احتلت إسرائيل الضفة الغربية والقدس الشرقية. همهم: "آه هذه هي الخالة التي قلت إنها تخاف على هويتها ولا تطيل زياراتها لكم. ولكن، كيف تزوجتْ عكاوية جليلية مقدسيا؟" أسرعت تقول: "الغربة غيرت موازين كثيرة. أنت الغزاوي تزوجت مصرية. هي القسمة والنصيب يا غريب." همهم: "ربما، القسمة والنصيب بمعنى أننا نختار لأنفسنا ما نجده في طريقنا، لكنني لا أظن أن خالتك اختارت الزواج بمقدسي. البنات ما كانوش يختاروا في ذلك الزمن". تضاحكت: "خالتي اختارت ونقت عريسها صدقني، وأقنعت جدتي بالموافقة." بدأت الحكاية حين تقدم من خالتها شاب في مقهى في شارع الحمرا، حيث كانت تجلس مع صديقتها، ووضع أمامها على الطاولة الصغيرة بطاقة تحمل اسمه وعنوانه ورقم هاتفه ورجاها أن تسمح له بزيارتها في بيت الأسرة صحبة والدته إن كانت تحب أن تتعرف عليه. أخذت خالتها بطاقة الدكتور مازن حماد، الطبيب في مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت وشكرته.

استفسروا عنه. تبين أنه، من أسرة مقدسية معروفة، وأن والده شغل منصب سفير فخري في حكومة فلسطين أيام الانتداب. جدتها أخافتها فكرة أن العريس المقدسي، سيعود يوماً إلى القدس ويأخذ خالتها معه. لكن خالتها، التي أعجبها العريس، قالت إنها تريد أن تذهب للعيش في القدس وتخلف أولاد وبنات فلسطينية يتربوا في فلسطين، فصمت الجميع. بعد أيام، جاء العريس يزورهم صحبة والدته يحمل سلة من الورد الأبيض وعلبة كبيرة من الشوكولاتة. حكت لهم أمه كيف توفي والده بعد النكبة بسنة، لأن قلبه لم يتحمل صدمة تقسيم القدس ببوابة بيت سميحا مندلباوم، التي صار الناس يقفون عندها يكلمون أحبتهم على الطرف الثاني، كنوع من لم الشمل. فالبوابة لم تكن تفتح إلا في عيد الميلاد لكي يتاح للمسيحين زيارة بيت لحم.

كان يستمع إليها وعلى وجهه ابتسامة عريضة. ما أجمل طريقتها في حكاية ما عاشت من أحداث. هي حكاءة. ماهرة عادت تقول: "هذه البوابة أُزيلت بعد حرب ستة وسبعين أليس كذلك؟" أسرع يقول: "طبعاً أزيلت لأنهم احتلوا كل القدس ولم يعد هناك قيمة لبيت متهدم فجّره الفدائيون وقتلوا الهجانا الذين احتلوه في الثمانية وأربعين." بدا عليها الاستغراب. أسرعت تقول: "هجانا؟ ما هي حكاية هذا البيت بالضبط؟" ملأه إحساس بأنها تخطو نحو عالمه، لكنه ذكَّر نفسه أن لا يلقي عليها محاضرة فهي لن ترضى بذلك. رشف من قهوته: "يا ستي هو بيت من ثلاثة طوابق بناه تاجر يهودي اسمه سميحا مندلباوم لأولاده العشرة، عام سبعة وعشرين، ليشجع اليهود على التوسع في الحدود الشمالية لمدينة القدس. لكن هيئة الأوقاف الفلسطينية اللي كانت في وقتها تمتلك مساحات واسعة من الأرض في المنطقة، منعت بيع الأراضي لليهود كي لا يستوطنوا فيها، وظل بيت سميحا مندلباوم، البيت الوحيد اللي تسكنه أسرة يهودية في المنطقة. لذلك انتفعوا به لأغراض عسكرية خلال انتفاضة البُراق سنة تسعة وعشرين، وخلال ثورة السته والثلاثين، للقنص وإبعاد الفلسطينيين عن أهم بوابات المسجد الأقصى، بوابة دمشق."

عادت تسأل: "بس شو قصة الهاغانا اللي ماتوا فيه؟" أسرع يقول: "في الثمانية وأربعين، أجبرت الهاغانا[2] أرملة سميحا على التخلي عن البيت لأنه كان على الحدود الفاصلة بين أحياء اليهود وبقية القدس، لصد الهجمات من الأحياء المجاورة. وضعوا على سطحه مجسماً لمدفع مضاد للطائرات مصنوع من الخشب لحمايته من الغارات الجوية وتحصنوا داخله حتى تم التوقيع على اتفاق وقف إطلاق النار، وأصبح البيت على الجانب الإسرائيلي من القدس. بعد شهور قليلة، هاجم الفدائيون المنزل بكمية ضخمة من المتفجرات فانهار على من فيه من أعضاء الهاغانا وقُتل خمسة وثلاثون منهم."

لفَّهم الصمت. رشفت من قهوتها وهي تقول: "بتعرف يا غريب أنا لا أعرف تفاصيل كثيرة مهمة عن تاريخ فلسطين. يجب أن أقرأ التاريخ بكل تفاصيله لأتعرف على كل ما فاتني." أحس بقلبه يرتجف. هي تزداد قرباً منه مع كل لحظة يقضيانها معاً. همس: "أستطيع أن أقترح عليك بعض المراجع التاريخية إن أحببت. بعضها قد لا تجديه إلا في لندن. المهم شو صار مع خالتك والدكتور حماد؟" عادت تكمل حكايتها. العريس كان في السنة الرابعة من الدراسة حين حدثت النكبة وقرر أن يعود إلى القدس لكن والده أصر أن

[2] منظمة الدفاع عن المستوطنات اليهودية التي أصبحت نواة للجيش الإسرائيل.

يكمل تعليمه، وطلب منه أن يظل في بيروت وقال له إنهم لن يتمكنوا من زيارته حتى تستقر الأوضاع. بعد سنة توفي والده في القدس ولم يتمكن من حضور جنازته لأنه كان يحتاج لمعاملات رسمية. بعد التخرج، حصل على منحة من الجامعة الأمريكية للتخصص في طب الأطفال في إحدى الجامعات الأمريكية، على أن يلتزم بالعمل في مستشفى الجامعة في بيروت لسنتين حين يعود من بعثته. بدا العريس سعيداً وهو ينظر لخالتها بطرف عينه ويقول إنه يأمل أن يعود للقدس السنة القادمة وإنه رتب كل الأوراق اللازمة للعمل في مستشفى يديره مجموعة من الأطباء العرب في القدس، ويرجو أن تكون معه الآنسه هبه.

أعلنت الخطوبة وأقيم حفل صغير في بيت العروس، وأصبح لسهام مهمة جديدة، مرافقة خالتها حين يدعوها الدكتور مازن لتتفرج على ما تم إنجازه في الشقة الجديدة التي سيسكنان فيها من دهان وتصليح، لأن جدتها كانت تقول في كل مرة: "تروحيش لحالك يمه خدي سهام معك". تضاحك غريب: "يعني صرتي شابرون لخالتك. بس بتعرفي إنها حكاية سبقت عصرها وفيها الكثير من الرقي والتحضر." أسرعت تقول: "وكمان زواج خالتي جعلني أدرك لأول مرة أن هناك فلسطينيين لم يتركوا فلسطين، ويستطيعون أن يغادروها ويعودوا إليها متى شاءوا. أسرع يقول: "مش بالضبط يا سهام هناك بعض التعقيدات. لكن الآن مع قيام دولة السلطة الفلسطينية يستطيع الفلسطينيون أن يعودوا ولكن يحتاج الأمر إلى الحصول على موافقات رسمية كثيرة." صمت لحظة وعاد يقول: "أنا بفكر بزيارة غزة، وصديقي عبد الواحد كمان بيفكر يجي معي هو وزوجته منى. حابين نساهم في بناء الدولة الفلسطينية. لازم أعرفك عليهم رح اتحبيهم كثير يا سهام." رأى للمرة الثانية احمرار وجنتيها. ابتسم واسترخى في مقعده.

واضح أنها من طبقة اجتماعية لم تعرف الفقر لا قبل النكبة ولا بعدها. ربما كان عليها أن تكون حريصة على قرشها لكنها لم تعرف معنى الحرمان، لم تعلم أبنائها أن يكون غماس لقمة الخبز قليلاً كي يكفي الطبق الأسرة كلها. هو عرف الفقر والعوز بكل معانيه، ويدرك تماماً أنه عرف طفولة لا تشبه طفولة الأطفال الذين لم يعرفوا حياة المخيم. فكل ما في المخيم لا يشبه سواه، مدرسة المخيم لا تشبه المدارس العادية وبيت المخيم لا يشبه غيره من البيوت وطفل المخيم يعرف ما لا يعرفه الأطفال الآخرون.

هو ولد وعاش سنين طفولته وشبابه المبكر في مخيم جباليا. دخل مدارس وكالة الغوث فيه، أيام كانت غزة تحت إدارة الحكومة المصرية، ثم غادرها إلى القاهرة، قبل أيام من حرب عام سبعة وستين، بعد أن حصل على مقعد دراسي في جامعة القاهرة لتفوقه في امتحانات التوجيهي المصرية. ترك غزة قبل أن تُغلق عليها الأبواب. كان كالناجي الوحيد من مركب تغرق، أو طائرة تهوي بركابها في أعماق البحر. يوم غادر غزة، كان والده واثقاً أنه سيتمكن من الوصول إلى القاهرة، وأن مصر وجمال عبد الناصر سيضمنون للفلسطيني الذي جاءهم من غزة، العيش الكريم ويحققون له أحلامه المشروعة في الوصول إلى ما يريد. كان أبوه يردد ذلك بثقة العارف بالأمور، ربما لأن العالم العربي كان مازال في تلك الأيام يعيش زمن الحلم الفلسطيني، العودة إلى فلسطين، كل فلسطين عكا ويافا واللد والرملة وكل مدينة وقرية فلسطينية. بل كان العرب، حكاماً وشعوباً ينادون ويطالبون بهذه العودة في أدبياتهم وشعرهم ونشرات أخبارهم والأعمال السينمائية والمسرحية والكثير مما كان يسمى الأغاني الوطنية. ولا يكاد خطاب رئيس جمهورية أو ملك عربي، يخلو من ترديد الشعارات المطالبة بضرورة عودة الحق لأصحابه في "الوطن السليب".

بعد سنين قليلة تغيرت هذه المفاهيم. حرب أكتوبر عام ثلاثة وسبعين غيرت مفاهيم كثيرة في السياسة ورؤية الفرد العربي لقضية فلسطين. فحرب أكتوبر لا علاقة لها بـ"تحرير فلسطين"، فهي حرب الهدف الأول منها عبور قناة السويس والوقوف على الجانب الآخر منها بدلاً من الجيش الإسرائيلي الذي احتلها بعد حرب سبعة وستين، ثم التفاوض على خروج إسرائيل من سيناء وتوقيع معاهدة سلام لا ترغم مصر على حروب أخرى. فمصر لم تكن راغبة بدخول الحروب رغم أن الجيش يحكمها لكنها رغم ذلك شاركت بجيشها في تحرير الكويت. المهم أن حرب أكتوبر حققت العبور وتوقفت بعد أيام معدودة وترددت عبارات لم يكن معظم الناس يفهمونها مثل ثغرة "الدفرسوار"، وأُعلن النصر المبين. كان هو أيامها يعمل في الكويت بعقد لثلاث سنين مع مكتب كبير للإنشاءات الهندسية، بعد حصوله على شهادة البكالوريوس في الهندسة المعمارية ليجمع بعض المال ويواصل تعليمه. كل من عرف من فلسطينيين في الكويت تلبَّسهم الحزن حين أعلن السادات توقف الحرب بعد استرجاع الضفة الشرقية لقناة السويس. تساءل الجميع، ماذا عن الضفة الغربية والقدس الشرقية وغزة ومرتفعات الجولان؟ لكن السؤال لم يكن له معنى تماماً كما لم يكن للنكسة معنى سوى اختيار كلمة تتماشى مع كلمة نكبة.

كان في العاشرة من عمره، حين بدأ يعمل في البناء وتبييض الجدران وتركيب الأبواب والشبابيك. فهو الابن الأكبر لعطا الله البناء الذي نال شهرة في المخيم وخارجه. والابن الأكبر، في المخيم، هو ثروة، الأسرة التي

تظل تنتظر بفارغ الصبر بلوغه التاسعة أو العاشرة ليساهم في إعالتها. وحين يكون الطفل طويل القامة مثله، ويبدو أكبر من عمره، يصبح معيل الأسرة ورجلها عن جدارة. الإناث أيضاً يشملهن هذا النظام، كلهن يتعلمن في سن مبكرة كيف يطبخنَ ويعجنَ ويجلبنَ الماء من العين أو البئر ويربينَ إخوتهن الصغار. فترى طفلة تحمل على خصرها شقيقاً أو شقيقة تتدلى أرجلهم لتلامس ركبتها، ومع ذلك تمارس عليهم أمومتها بكفاءة عالية. هي سنة الحياة في المخيم التي تحتم أن يرث الأبناء مهنة الوالد، وأن تتعلم البنات الصغيرات كل ما تجيده الأمهات.

سهام تعتقد أن هذه الظاهرة هي جزء من تنشئة الأولاد في الأسرة الفلسطينية بشكل عام. ربما بسبب ذاك الإحساس العميق بالخسارة، خسارة الأرض، وهذه الرغبة الدفينة في تنشئة أولاد أقوياء قادرين على التعامل مع الحياة، ليكونوا أملاً جديداً يعوضهم بعضاً مما خسروا. فهي رغم كونها الابنة الصغرى التي يدللها الجميع، ويتساهلون معها في الكثير من القضايا، كان عليها أن تكون مثل العديد من الأطفال الفلسطينيين قادرة على عمل وإجادة الكثير من الأمور الصعبة، من طي الملابس وكيها وترتيب الأسِرَة، إلى المساعدة في إعداد الطعام، وقطف الملوخية وتنظيف البقدونس. فالأسرة الفلسطينية تؤمن بتعليم أطفالها في سن مبكرة، الكثير من المهارات التي تجعلهم قادرين على الاعتناء بذاتهم وتقديم المساعدة لأسرهم والاعتماد الكامل على النفس في حل الكثير من المشاكل العصية.

أهم ما تعلمته هي في طفولتها كان فك الحروف كما كانت تقول جدتها، والقدرة الكاملة على القراءة قبل أن تتم السادسة من عمرها. كان كل من حولها يقرأ الكتب والمجلات لكن خالتها هبه كانت تضفي على القراءة بهاءً خاصاً، فتراها مستلقية على فراشها وقد لفَّت ساقاً على ساق وهي تقرأ وتتضاحك وتهمهم وهي تقلب الصفحات، يا حلاوتك يا عماد، تسلميلي يا فاتن. وكانت هي تجلس على الأرض في الجهة المقابلة وتحاول أن تعرف من هم الأشخاص الذين تخاطبهم. مع الوقت أدركت أنهم شخصيات معروفة تنشر المجلة صورهم وأخبارهم. أعجبتها الفكرة وقررت أن تتعلم فك الحروف. صارت تستجمع كل فطنتها العلمية كي تقرأ بعض الكلمات على غلاف المجلة التي تحملها خالتها أمام وجهها. مع المتابعة والمراس صارت تقرأ كلمات متتابعة تشكل جملة مفهومة. أسعدها ذلك وبدأت تقلب صفحات المجلات حين لا تكون خالتها في الغرفة.

في يوم عادت من المدرسة، وجدت كومة من مجلات خالتها ملقاة عند باب الشقة. تبين أنها مجلات لم تعد خالتها تريدها لأنها انتهت من قراءتها. عقدت صفقة معها أن تحصل على المجلات التي تنتهي من قراءتها كل أسبوع وتتكفل هي بوضعها أمام باب الشقة ليأخذها الزبال. صارت حزمة المجلات، لعبتها المفضلة، تقلبها وتقرأ ما تقدر على قراءته من عنواين وتتفرج على صور السيدات الجميلات. مع انتقالها إلى السنة الثانية في المدرسة، بدأت تفهم معظم الكلمات التي تقرأها وتستطيع أن تتابع ما هو مكتوب عن أحدث الأفلام وتفاصيل طبخة الأسبوع وحتى طريقة رسم خط الحواجب. كانت أمها تتضاحك كلما رأتها في جلستها مع المجلات، فقد اعتبرت أن اهتمام ابنتها الصغيرة بقراءة المجلات، دليل على أنها طفلة موهوبة تقرأ ما يقرأه الكبار، ويخزي العين عنها بتفهمه وقد تصبح يوماً من الذين يكتبون فيها أو يُكتب عنهم، مين عارف. لذلك لم تقل لها يوماً إن هذه المجلات ليست مجلات أطفال، أو تشتري لها مجلات أطفال أو حتى تطالبها بالاهتمام بدروسها بدلاً من تضييع وقتها في قراءة المجلات. تركتها تكتشف عالماً جديداً أكسبها خبرة في القراءة والكتابة ووسع مداركها وعلمها حب القراءة.

هو لم يعرف مثل هذه الرفاهية فلم يكن في بيتهم مجلات. كان المطلوب منه أن يساعد حين تلزم المساعدة، ويدرس كي ينجح. وحين بلغ العاشرة، كان عليه بعد أن يعود من المدرسة، أن يساعد أباه البناء في عمله. توقف عن اللعب مع الصِبيَة وبدأ يتعلم تفاصيل صنعة البناء، كيف تتراصف اللبنات لبناء الجدران وكيف تبنى السقوف، وتركب الأبواب والشبابيك الخشبية، وتبيض وتدهن الجدران الداخلية لمن يقدر على كلفتها. لكن والده البناء الماهر مثل الكثير من الصناع المهرة، لم يبن لنفسه بيتاً كالبيوت التي يفاخر ببنائها، وانطبق عليه المثل الشهير، "الإسكافي حافي والحايك عريان وباب النجار مخلع". فبيتهم في مخيم جباليا، بيت عطا الله البناء، كان غرفة صغيرة بشباك مرتفع يطل على زقاق ضيق يدخل بعض الضوء والهواء والكثير من أصوات وحركة الناس، تحته كومة من المخدات والطراريح للجلوس خلال النهار والنوم خلال الليل له ولشقيقيه، وفي الزاوية المقابلة للشباك باب ضيق يفضي إلى غرفة بالكاد تتسع للسرير الخشبي الذي يئز كثيراً ويتقاسمه والديه، وكان له فضل تعليمه حقائق الحياة حين كان يئز في بعض الليالي ثم يقوم أبوه إلى دورة المياه ليغتسل.

حمام البيت، كان عبارة عن مربع صغير له باب خشبي أزرق، في إحدى زواياه جرن[3] حجري فيه طاسة من النحاس يستعملونها للاستحمام كل يوم جمعة. كان الاستحمام طقساً مهماً تعد له والدته العدة فهو يشمل

[3] الجرن: حوض عميق من الحجر يستعمل للاستحمام.

غسيل الأطفال وملابسهم. كانت أمه تضع قدراً كبيراً من الماء على "الوابور" في المطبخ القريب من الحمام، غرفة صغيرة أخرى فيها نافذة أشبه بالكوه ووابور وبضعة رفوف خشبية عليها قدور وأطباق وكاسات الشاي. وحين يغلي الماء في القدر، تحمله إلى الحمام ويبدأ الاستحمام. يدخلون تباعاً إلى الحمام، يخلعون ملابسهم ويضعونها في طشت الغسيل، ثم يفرغون بضع كاسات من الماء الحار فوق ماء الجرن البارد الذي تزوده به حنفية صغيرة، ليبدأ غسيل الجسم والشعر بالصابون النابلسي. حين ينتهون من الحمام، تغسل أمه الملابس وتنشرها فوق سطح البيت.

جده وجدته كانا يعيشان في غرفة لصيقة بالبيت لها باب منفصل. جدته كانت تساعد أمه في الطبخ ونشر الملابس، أما جده، فكان يقضي يومه جالساً على صندوق خشبي أمام الغرفة الصغيرة وهو يسرح بعينيه نحو البحر الذي حمله من يافا إلى غزة..

هي لم تعش في مخيم، لكنها اكتشفت أسراره في طفولتها حين تسللت إلى مخيم برج البراجنة، وأدركت في سن مبكرة ارتباطه بالخيم التي عاش فيها الفلسطينيون بعد أن هُجروا في نكبتهم من بيوتهم وأراضيهم. كانت في الخامسة حين بدأت تذهب إلى مدرسة الراهبات الفرنسيسكان القريبة، مع ابنة الجيران وشقيقتها الكبرى التي كانت تعمل في المدرسة وترافقهما في مجيئهما ومرواحهما إلى المدرسة كل يوم. كان الطريق المختصر إلى المدرسة يخترق حقلاً صغيراً. لاحظت أن شقيقة صديقتها تمسك بأيديهما وتسرع الخطى وهي تهمهم: "بسرعة يا بنات،" حين يمرون أمام زقاق ضيق يؤدي إلى مجموعة من البيوت الصغيرة المتلاصقة، التي لا يغطي سطوحها القرميد الأحمر مثل بقية البيوت في برج البراجنة، ولا يوجد حولها أشجار أو بساتين.

بعد أيام، بدأت تتساءل لم عليهم أن يسرعوا حين يمرون أمام الممر الذي يفضي لتلك البيوت. في يوم سألت شقيقة صديقتها وهي تجرها بعيداً عن الممر الضيق: "شو هادا المكان؟" ابتسمت: "إذا قلتلك ما بتزعلي يا سهام؟" تساءلت: "ليش بدي أزعل؟" أجابتها: "لأنو هيدا مخيم للاجئين الفلسطينيين". بحلقت فيها وقلدت همسها: "شو يعني مخيم؟" تأملتها لحظة وهي تقول: "ولو معقول ما بتعرفي شو مخيم؟ المخيم هو المكان إللي حطوا فيه الخيم للفلسطينية لما هاجروا من فلسطين إلى لبنان. بعد سنين صاروا يبنوا هيدي البيوت المكركبة. عشان هيك ما بدنا نشوف حدا من الناس إللي فيه خصوصاً الصبيان الصغار لأنهم زُعران."[4] تصاعدت الحمرة إلى وجهها مع تلاحق الكلمات، الخيم، والبيوت المكركبة، والأطفال الزعران.

[4] الأزعر: قليل الأدب.

وجدت نفسها تتساءل إذا كان فلسطينيون يعيشون في هذا المكان فلماذا تقول عن أطفالهم زعران؟ هل هذا ما تقوله عنها؟ فهي أيضاً طفلة فلسطينية. أحست أنها فعلاً زعلت كما تنبأت لها شقيقة صديقتها.

أمضت الأيام التالية تحاول فك لغز المكان الذي يسمونه المخيم. لم تسأل أمها أو جدتها أو حتى خالتها عن الموضوع. كانت تريد أن تكتشف الأمر بنفسها. في أحد الأيام في طريق عودتهم إلى البيت، توقفت عند مدخل الممر الضيق وتشاغلت بمسح عينها بمنديلها. سمعت أصواتاً. أزاحت المنديل عن عينها وخطت بضع خطوات داخل الزقاق. رأت رجلاً يجلس عند مدخل الزقاق على صندوق خشبي من صناديق نقل الخضار والفواكه يدخن سيجارة، وأطفال يتراكضون جيئة وذهاباً في الزقاق الضيق خلفه وهم يدفعون أمامهم عجلة معدنية يحركها صبي يحمل بيده قطعة من الخشب يضرب بها العجلة على جانبيها كي تظل تتحرك بخط مستقيم والأطفال يصرخون: "يا محمد إدفشها على اليمين." "يا صالح بعِّد عن الحيط". "ولك يا ياسين زيح من الطريق". فجأة صاحت امرأة من فوق سطح أحد البيوت وهي ترفع بعض الملابس عن حبل غسيل: "خلص يا ولاد خلص كل واحد على بيتو. صار وقت عمل فروض المدرسة."

تنحنح الرجل الجالس على الصندوق وصاح: "إعمليلي كاسة شاي الله يرضى عليكي يابا." تجمدت في مكانها بلا حراك، هذا الرجل وتلك المرأة وكل هؤلاء الأطفال، فلسطينيون مثلها، رغم أنهم يعيشون في هذه البيوت الصغيرة المتلاصقة. خرجت إلى الطريق. رأت صديقتها وشقيقتها واقفتان في وسط الطريق وقد بدا عليهما القلق. صرخت شقيقة صديقتها: "لوين رحتي، لوين رحتي يا سهام جننتينا." همست بشيء من اللامبالاة: "كنت عند مدخل المخيم." صاحت: "شو وداكي عالمخيم شو بدك فيون."[5] همهمت: "كان بدي أشوف مين الناس اللي فيه، لقيتهم فلسطينية زينا."

في البيت كانت جدتها وأمها تعدان الطعام في المطبخ. ملأتها رغبة عارمة في التمرد. سألت جدتها: "تيته، بتعرفي إن الفلسطينيه لما تركوا فلسطين عاشوا في خيم؟ أنا شفتهم اليوم، بس هلق عندهم بيوت صغيرة بدل الخييم وأولادهم بيلعبوا في الشارع حافيين مش لابسين كنادر."[6] صاحت أمها "شو يعني شفتيهم؟ رحتي عالمخيم؟" أسرعت تقول: "المخيم بيدخلوه من الحارة الضيقة اللي على طريق المدرسة. أنا وقفت عند المدخل وشفتهم وسمعتهم بس من بعيد. ما حكيتهم ولا حكوني. بس لاقيتهم ناس بيحكو زينا فلسطيني وكل البنات في المدرسة عارفين قصتهم إلا أنا." تجمدت أمها في مكانها وبحلقت فيها جدتها. تصاعد إحساسها

[5] ماذا تريدين منهم.
[6] كنادر: جمع كندرة، حذاء.

بالتمرد. اقتربت من جدتها وهي تقول: "هدولة كمان عندهم مفاتيح لدورهم إللي سرقوها منهم اليهود زي مفاتيحك يا ستي؟" بلعت جدتها ريقها وهمهمت: "كل الفلسطينيه عندهم مفاتيح."

يوم حكت له حكايتها مع مخيم برج البراجنه، كان في عينيها حزن شفيف. صمتت لحظة في محاولة لاستجماع نفسها وعادت تقول: "أنت يا غريب تشبه أولئك الأطفال الذين رأيتهم يلعبون ويتضاحكون في ذلك الزقاق الضيق. أنت واحد منهم. الفرق الوحيد هو أن زقاقك كان على أرض فلسطينية وليس في إحدى دول اللجوء." همس: "لا يوجد فرق حقيقي بين الإثنين، فمن يعيش في مخيمات اللجوء في فلسطين لا يعنيه كثيراً وجود المخيم على أرض فلسطينية. ما يعنيه حقاً إنه يعيش في مخيم، في مكان معزول عن المدينة التي بُني قربها، "غيتو" بلغة مهندسي المدن، أحياء معزولة عن المدينة يعيش فيه بشر لا ينتمون لسكان المدينة القريبة رغم انتمائهم المشترك وتبعية المكان للمدينة التي أقيم بقربها. فنحن نقول مخيمات غزة ومخيمات طولكرم ومخيمات رام الله." هزت رأسها تعلن رفضها: "لا لا المخيم يجب أن يكون سكناً مؤقتاً، وليس مكاناً دائماً للعيش. ما يثير استغرابي هو قبول الفلسطينيين بوجود مخيمات لأبناء بلدهم على أرضهم وبالتمايز الاجتماعي عنهم." صمتت لحظة وعادت تقول: "اللاجئ في كل مدن العالم يعيش ضمن مجتمع المدينة التي لجأ إليها في حين نُصرُّ نحن على تغريبه مرتين."

تأملها باسماً: "ربما لأننا لا نحسن الدفاع عن ما هو حق لنا. سكان المخيم بلا مستقبل، معظمهم لم يحصل على تعليم يؤهله للحصول على مهارات مهنية. لذلك معظمهم عاطلون عن العمل، فاللاجئ ليس مواطناً يعمل ليعيش ويكتسب مهارات. اللاجئ يجب أن يعيش على ما تجود به المعونات الدولية، أو أن يمتهن مهناً يتوارثها عن الآباء والأمهات، لا تخرج عن نطاق الخدمات، خياط، حلاق، بناء وإسكافي، تدور كلها في حدود المخيم. لذلك يظل المخيم مهما كبر حجمه، سجناً بأسوار لا يحق لسكانه الخروج منها." لفهما الصمت. همس وكأنه يحدث نفسه: "حياة المخيم ذل يتوارثه الأبناء عن الآباء. طفولتنا أنا وأخوتي لم يكن فيها كتاب أو لعبة، لذلك حرصت أن أوفر الكثير من اللعب والكتب لنور وناهد. كنا ثلاثة إخوة، أنا الوحيد بينهم الذي استطاع أن يخرج من أسر المخيم، عدنان وعلي مازالا يعيشان في المخيم مع زوجاتهم وأولادهم. الفرق في العمر بيني وبينهما لا يتجاوز بضع سنين، رغم ذلك، حُرما من التعليم العالي ومن فرص العيش خارج المخيم." صمت لحظة وعاد يقول: "أحياناً أقول من حسن حظنا أننا كلنا ذكور فذل الإناث أقسى وأكثر إيلاماً."

كانت القاهرة نقلة كبيرة في حياته من نواح كثيرة. شقة في حي مصر الجديدة، وغرفة له وحده تدخلها الشمس من باب زجاجي يطل على شرفة صغيرة تطل على الشارع. غرفة، ينام فيها على سرير حقيقي عليه فرشة وشراشف نظيفة وبطانية دافئة، ويعلق ملابسه في دولاب خشبي له باب يفتحه ويغلقه متى شاء، وفي الشقة حمام يوفر الماء الساخن من الحنفية دون الحاجة لتسخينه في الطنجرة وسكبه في الجرن الحجري كما كانوا يفعلون في غزة. كان يحلو له أن يطل من الشرفة في الصباح على بائع البليله[7] وهو ينادي على بضاعته بصوته الرائق، "عسل يا بليله"، فيدلي له السلة لشراء ما تيسر من بليلة أو ينتظر مرور بائع الفول ليعد فطوراً شهياً لزميليه اللذين صارا اسرته في غربته، مصري من الصعيد، وسوداني. كان يتضاحك وهو يقول لهما: "نحن تقريباً جامعة دول عربية." وفي أيام الشتاء المشمسة وأماسي الصيف كان يضع كرسياً صغيراً في الشرفة ويجلس يقرأ ما اشتراه من كتب وصحف ومجلات من "سور الأزبكية" العتيد، السور الذي يحيط بدار الأوبرا الملكية التي بناها الخديوي اسماعيل بمناسبة افتتاح قناة السويس، وقدمت فيها أوبرا فيردي عايدة، التي كتبها لهذه المناسبة التاريخية العظيمة.

مع الأيام صار هو وشريكاه في العيش في الشقة، أسرة متجانسة. وجدوا لغة مشتركة بين أحلامهم الكبيرة، وأحسنوا تقاسم ما تجود به الحياة في شقة بإيجار قديم لا يتجاوز بضع جنيهات في الشهر في شارع صغير في أحد أجمل أحياء القاهرة، مصر الجديدة. كانت منطقة مصر الجديدة، أو هيليوبوليس، مدينة الشمس، منطقة سكنية بامتياز، ببيوتها المسقة وشوارعها العريضة والمدارس العريقة، والكنائس لعل أشهرها الكنيسة الأنجليكية، البازيليك التي دفن فيها المليونير البلجيكي إدوارد إمبان، مهندس خطوط السكك الحديد، المعروف في مصر باسم البارون، الرجل الذي بنى مصر الجديدة. بدأت الحكاية حين اشترى أرضاً في الصحراء قريبة من القاهرة، بثمن بخس وربطها بقلب القاهرة بخط مترو، وبدأ يبني بيوتاً متناسقة وشوارع ومساحات خضراء. ثم بنى لنفسه قصراً جمع فيه فنون معمار معابد كومبوديا مع الهند وزخارف عصر النهضة الأوربية، حمل اسم قصر البارون، وعاش فيه مع زوجته وابنتيه، وأصبح من أشهر معالم مصر الجديدة. مع السنين، اجتذب حي مصر الجديدة مجتمع الطبقة المتوسطة، من أطباء ومحامين ومهندسين ورجال أعمال ونجوم سينما، وأصبح في الستينيات، من أجمل وأرقى الأحياء السكنية في القاهرة، تضم البيوت الحديثة، والمدارس الخاصة العريقة، والمحلات التجارية الأنيقة، ودور السينما والمقاهي وخط مترو شهير يربطها بمحطة رمسيس في قلب القاهرة. لكنها ككل أحياء المدن الكبيرة، كانت تضم أيضاً عمارات متواضعة بشقق صغيرة، بإيجار قديم لا يتجاوز الخمس جنيهات في الشهر.

[7] البليلة: أكلة شعبية مصرية من الحنطة والحليب والسكر.

أحب القاهرة وأهلها، فقد علمه الحرمان من العيش في المدن الفلسطينية، أن يحب الأماكن التي تحتضنه وتوفر له العيش الكريم. القاهرة كانت مدينة حاضنة حنون بامتياز، مدينة تحبك وترغمك على حبها دونما عناء، ولا تطالبك بأن تتغير لتناسبها، تقبلك كما أنت وترحب بك وتطويك تحت جناحها. لذلك عاش فيها سنيناً فلسطينياً لا يجيد حتى اللهجة المصرية القاهرية. صحيح أن العديد من الكلمات المصرية الدارجة تسللت إلى لغته المحكية، لكن ذلك لم يغير حقيقة أنه فلسطيني قاهري اعتاد كل ما فيها من خصوصية وخبر دروبها وحاراتها القديمة. يوم تعرّف على زوجته سمية، قالت إن لهجته الفلسطينية فيها كلمات كثيرة مصرية. أسرع يؤكد أنها كلمات غزاوية أصلية فيها بعض الشبه باللهجة المصرية ربما للقرب الجغرافي.

بعد أربع سنين، تحقق الحلم الكبير، حصل على شهادته الجامعية الأولى، بكالوريوس في الهندسة المعمارية. أحس يومها أنه أنجز مهمة وعد بإنجازها وأن عليه أن يكمل ما بدأه. فهو لا يستطيع أن يعود إلى غزة، حتى لو أراد ذلك، لن يسمحوا له بذلك وإن فعلوا لن يستطيع الخروج منها بسهولة، أهله لم يتمكنوا من زيارته وحضور حفل تخرجه. تغيرت أمور كثيرة بعد أن دخلت إسرائيل غزة. لم يعد الخروج منها والدخول إليها من وإلى مصر كما كان في الماضي. كان أمامه شيء وحيد، أن يواصل تحصيله العلمي. كان بحاجة لتمويل دراسته العليا. قرأ في إحدى الصحف عن وظائف شاغرة في شركة هندسية في الكويت. تقدم لها. بعد أيام قليلة، دعي لمقابلة. سألوه، أجاب وحصل على الوظيفة بعقد لثلاث سنوات. وجد نفسه يعيش في مدينة لا تشبه ما اعتاد من حياة في القاهرة. افتقد القاهرة وكل ما فيها. تشاغل بالعمل والقراءة ومحاولة تطوير مهنيته، لكنه كان هذه المرة غريباً مرتين، عن غزة وعن القاهرة.

بعد ثلاث سنين عاد إلى القاهرة لإكمال دراسته والحصول على شهادة الماجستير في هندسة المدن. كان كثيراً ما يتملكه حزن يجعله يتساءل، ماذا بعد كل هذا الجهد، ولم هو مصر على مراكمة الشهادات؟ أين سيعمل؟ وهل سيستطيع أن يساعد إخوته ويرعى والديه؟ فهم يعيشون الآن في ظل الاحتلال الإسرائيلي حياة أقسى مما عرف هو. أخوه عدنان، احترف البناء، صار عدنان عطا الله البناء الماهر الذي يحصل دائماً على عمل في إسرائيل. صار يقف كل صباح على معبر إيريز ينتظر أن يلتقطه مقاول إسرائيلي يأخذه للعمل في بناء البيوت في المدن الصغيرة، أو المستوطنات حول المدن الكبيرة. أحزنه أن يعمل أخيه في بناء مستوطنات إسرائيل، لكنه كان يدرك أن الحصول على لقمة العيش أمر لا يحتمل النقاش المترف.

علي، شقيقه الأصغر، رفض أن يعمل في البناء وأختار العمل في كراج لتصليح السيارات وسكن مع زوجته في غرفة جده وجدته بعد توسيعها وإضافة مرافق جديدة. علي تزوج قبل بضع سنوات، لكنه يرفض فكرة الإنجاب ويظل يردد: "بديش أكثِر الفلسطنية. ليش أكترهم؟ أجيب ولاد اتعذبهم إسرائيل يورثوا الفقر وحياة المخيم؟"

كانت فترة كئيبة من حياته، افتقد أهله وفلسطين وصديقه عبد الواحد الذي ملأ وحشته في الكويت وغادر إلى أمريكا ليكمل دراسته. ثم كان يوم، التقى فتاة مصرية في بيت زميل مصري، سمراء ملفوفة القوام، تعمل مدرسة للرسم في مدرسة ثانوية خاصة. تضاحكت وهي تقول إنها من شبرا حي المشاهير في القاهرة أمثال داليدا ونجيب الريحاني وبليغ حمدي، لكنها تعيش حالياً في مصر الجديدة في شقة قريبة من المدرسة التي تعمل فيها. حكى لها عن سنين عيشه في مصر الجديدة حين جاء من غزة قبل سنين، ودعاها لشرب فنجان قهوة في كازينو قصر النيل الشهير. قبلت دعوته. جلسا قرب النيل وانسابت الأحاديث بينهما. كانت صريحة تقول دون حرج. تضاحكت: "إنت يا أستاذ غريب فلسطيني تعتز بفلسطينتك وأنا أحترم ذلك. أنا أيضاً مصرية جداً وبحب الناس البسيطة الجميلة، والتعبير عن رأي دون قيود." حاول أن يحكي لها عن نفسه وماضيه، وجد أن عليه أن يقدم الكثير من الشروح عن أسباب وجود مخيم للاجئين الفلسطينيين في مدينة فلسطينية. أثارتها الفكرة فبالنسبة لها الإنسان لا يمكن أن يكون لاجئاً في وطنه ومصر لا تسمح بذلك لأنها تحترم المصري.

سمية، كمعظم المصريين، فخورة بمصريتها، وغير راضية عن الحروب التي تخوضها مصر في أي مكان: "أولادنا بيموتوا في حروب كثيرة مالناش دعوه بيها. المفروض الجيش بيدافع عن أرضه وبس. وكل بلد في الدنيا عنده الجيش بتاعه." قالت إن الحرب التي قامت نتيجة للعدوان الثلاثي على مصر، كانت حرباً للدفاع عن الوطن، أما حرب اليمن وحرب الأيام الستة، فحروب لا داع لها لأنها لا علاقة لها بمصر وأهلها، وأن حرب أكتوبر هي التي أعادت الأرض المصرية لأهلها ويجب أن لا يكون بعدها حروب. مصر تحتاج السلام لتتطور.

أعجبه أنها تقول رأيها بصراحة وتدافع عن ما تؤمن به، لكنه لم يكن يوافقها على كل ما تقوله. فبالنسبة له، فلسطين "جُرح في صدر الأمة العربية" واسترجاع الأرض التي اغتصبها العدو الصهيوني واجب وطني وهذا ليس مجرد شعار بل ما يؤمن به. فهو من جيل انتكس بعد تسعة عشر عاماً على نكبته، ورضي بهذه

الكلمة الغريبة التي لا تصف حتى ما حدث. فالانتكاس يعني أن ما قبله كان صحة وعافية وليس نكبة. لكنها كلمة تعبّر تماماً عن الواقع الفلسطيني، لا لأن الفلسطينيين خسروا المزيد من الأرض وحرموا فرحة النصر الذي وعدوهم به، بل لأنهم صاروا في مخيمات لجوئهم الأول، شهوداً على هجرة لاجئين فلسطينيين جدد، إلى مخيمات اغتراب قسري جديدة تماماً كما فعلوا هم قبل تسعة عشر عاماً. رغم ذلك استطاع أبناء هذا الجيل أن يتعلموا ويحصلوا على أعلى الشهادات وأن يحبوا وينجبوا ويكتبوا الشعر والموسيقى وكأنهم يؤكدون صحة مقولة فردريك نيتشه، "ما لا يقتلك يجعلك أقوى،" وعليه لن يتخلوا عن فكرة استرجاع الأرض والحق الفلسطينيين.

هي لم تنكر عليه أن ينادي باسترجاع الأرض والحق. لكنها ترفض وبشدة أن يكون ذلك على حساب أمن وسلامة مصر وشعبها. فهي تريد لبلدها أن يستقر وتنتهي حروبه وأحزانه. تريد أن تبني مصر اقتصاداً قوياً كي لا يجوع أهلها. كان فيما تقول الكثير من المنطق والعقلانية. بعد بضع لقاءات، أحس أنه يريدها في حياته. عرض عليها الزواج. قبلت بشرط، أن لا يلغي الزواج من فلسطيني هويتها كمصرية. قالت له ضاحكة إنها لا تريده أن يصبح مصرياً ولا تريد هي أن تتحول إلى فلسطينية. ستظل كما اعتادت أن تكون مذ تشكل وعيها، سمية أبو الفتوح المصرية القاهرية من حي شبرا، التي تزوجت فلسطينياً من غزة يصغرها بأربع سنين، وستقاسمه الحياة وتكون معه أسرة وتمنحه ويمنحها كل ما يقدران عليه من حب. وافق على شرطها الذي بدا عقلانياً وقال لها إنه يريد الزواج منها، سمية أبو الفتوح المصرية الجميلة ويريد لأولاده أماً مثلها. تزوجا بين جمع صغير من الأصدقاء واستقرا في شقتها التي ورثتها عن أهلها في مصر الجديدة. أسعده أن يعود إلى ما اعتاد من أماكن، وأن يكون مع امرأة لطيفة المعشر تفهم معنى الحياة المشتركة.

مع الأيام وجد أن الالتزام بالشرط الذي اتفقا عليه في خضم ما توالى من أحداث جسام، يعني أن لا يتقاسما ما تفرضه تلك الأحداث من حزن ومخاوف. فبعد عام من الزواج هبطت طائرة تقل الرئيس المصري محمد أنور السادات في مطار "بن غوريون" القريب من عاصمة إسرائيل تل أبيب، في التاسع عشر من سبتمبر من عام سبعة وسبعين. جلس أمام شاشة التلفزيون وقد ملأه إحساس بالخيبة والحزن والخذلان، مصر "الشقيقة الكبرى"، تتصالح مع العدو الذي خاضت معه حروباً كان آخرها قبل أقل من أربع سنين، ورئيسها يقبل غولدا مائير التي كانت تقول إن مولد طفل فلسطيني يؤرق ليلها. جلست سميه بجانبه تراقب معه ما يحدث. كان هو يغلي غضباً وهي تشعر بالرضا. فبالنسبة لها، السادات هو رئيس جمهورية مصر العربية، وإن كان راغباً في الصلح مع إسرائيل، فلا بد أنه قرار اتخذه لمصلحة مصر وشعبها. حين انتهى السادات من إلقاء

كلمته في الكنيست الإسرائيلي، بدت متفقة تماماً مع ما قاله من رغبة في السلام لأنها تؤمن أن مصر يجب أن لا تحارب نيابة عن أحد، بعد أن حررت أرضها، وأن على كل شعب أن يبذل ما في وسعه ليحرر أرضه. حاول أن يضبط أعصابه وأن لا يثير السؤال، كيف يحرر الفلسطينيون أرضهم وهم لا يملكون دولة ولا جيشاً ولا سلاحاً، لأنه سيكون نقاشاً غير مجد يوتر الجو ويخلق المشاكل وهو عاهدها على عدم فعل ذلك خاصة وأنها كانت في شهور حملها الأولى.

خلال الشهور التالية تجنب الحديث عن الموضوعات التي تثير الخلافات بينهما. أقنع نفسه أنها مثل العديد من البشر تضع مصلحة بلدها فوق الجميع، وفلسطين بالنسبة لها مجرد أحد هؤلاء الجميع، ولن تستطيع أن تفهم يوماً أنه من جيل من الفلسطينيين، عاش زمن الحلم بالعودة إلى فلسطين، وآمن أنها ممكنة لو وحد العرب كلمتهم وفعلهم. لذلك ظل يتبادل كلمة "بالعُودِة" في الأعياد الدينية بدل تحية العيد التقليدية، رغم كل الهزائم وخيبات الأمل. الآن لم يعد حلم العودة لفلسطين وتحرير الأرض "المغتصبة" حلماً مشتركاً بين كل الناطقين بالعربية. تحرر العالم العربي من قيد فلسطين الذي كبله لسنين، وانطلق حراً يبحث عما يناسب زمن العولمة وصار "الحلم العربي" المزيد من السفارات التي يرفرف عليها علم إسرائيل. بل هناك اليوم من يقول إنه لا حق للفلسطينيين بالأرض التي عاشوا عليها منذ قرون وتكنوا باسمها، ويعودون بتاريخ فلسطين إلى عصور سحيقة في القدم، ليثبتوا أن الفلسطينيين دخلاء على أرضها. ترى لو قامت دولة إسرائيل في أوغندا، كما كان مقترحاً على الحركة الصهيونية، هل كانوا سيبحثون عن جذور تغرب الأفارقة عن القارة السوداء؟

اليوم حين يرى حال العالم العربي بكل حروبه وخلافاته، وما فيه من تدمير للقيم والآثار والاقتصاد، ومبالغات في تفسير المفاهيم الدينية، وتراكم للاجئين والمشردين حتى أصبحت المخيمات الفلسطينية تبدو أماكن مرفهة مقارنة بعذاب من يعيشون في الخيام وتغرقهم البحار، يتساءل، أهذا لأن العالم العربي حارب لأجل فلسطين أم لأنه تخلى عنها وتحولت قضية فلسطين إلى علم وكوفية وبضع شعارات مكررة ملها المستمعون وخفت صوت مرديدها.

مولد إبنه نور، جلب له سعادة لم يعرف لها مثيلاً إلى حياته. فرحة لا تشبه كل ما عرف من فرح قبلها. حين ينظر في عينيه يشعر أنه يمتلك العالم بأسره، وزاد من فرحه أن سمية كانت أماً رائقة منحته كل ما يحتاج من حب ورعاية دون مبالغات. مع انتصاف عام واحد وثمانين، حصل على شهادة الماجستير وهو أب لطفلين نور وناهد، التي ولدت قبل شهر من مناقشة أطروحته "التوسع السكاني في المساحات البيئية الصغيرة". كم تمنى وهو يجري الدراسة على أطروحته، أن يتمكن من زيارة غزة ليدخلها في بحثه، كمثال للمكان الجغرافي الصغير بكثافة سكانية، لا يضاهيها أي مكان آخر. بعد حصوله على الماجستير، بدأ يشعر أن حياته تستقر، واتخذ قراراً أن لا يتحدث في الموضوعات التي تثير الخلافات بينه وبين سمية أم نور وناهد التي تستحق منه كل الحب والاحترام. مرت الأيام رائقة وبدا له أن الأمور تسير كما يتمنى. ثم حدث ما لم يحسب له حساباً. جاء والداه لزيارته في أواسط عام إثنين وثمانين بعد أن سمحت إسرائيل بفتح معبر رفح بين مصر وغزة.

كان قد عاش خمس عشرة سنة من البعاد عنهما ولم يلتقي أحداً من أهله مذ غادر غزة عام سبعة وستين. جاءت أمه تقود والده الذي صار يمشي بصعوبة بعد إصابة عمل في ساقه أقعدته لشهور وأنهت قدرته على أعمال البناء الشاقة. بدا عليهما الكبر. آلمه أنهما كبرا في غيابه. أحس بمعنى جديد للغربة والبعاد، أن لا تواكب مرور السنين على من تحب. وجد نفسه يراجع الأحداث التي عاشاها وهو بعيد عنهما ويستعيد سنين العيش التي مرت به دون أن يشاركاه فيها. هما لم يحضرا حفل زواجه أو يشهدا مولد ابنه وابنته، رغم أن نور سيتم الرابعة قريباً، وناهد في عامها الأول، ولم يعرفا الأماكن التي عاش فيها طوال تلك السنين ولا من كان حوله من أصحاب. حاول أن يواسي نفسه بأنهما سيفرحان بما حقق لنفسه وسيقضيان وقتاً طيباً معه ومع زوجته وأولاده.

حاول أن يعوض كل ما فاته من تفاصيل حياتهم. طالب أمه أن تحكي له بالتفصيل عن أحوالهم وأحوال شقيقيه. أمه لم تكن تبخل بكل ما تحفظه ذاكرتها من تفاصيل صغيرة عن البيت والأبناء وزوجاتهم وأولادهم والأقارب والجيران. حكت له يوماً عن ما حدث بعد سفره وقيام حرب عام سبعة وستين، وكيف عاشوا أياماً في خوف وترقب. في البداية ظنوا أنهم منتصرون وسيعودون قريباً إلى يافا، بل وصدقوا ظنهم. ثم صاروا يجلسون صامتين قرب الراديو يستمعون لأخبار الحرب. والده يبحلق في فراغ الغرفة وجده ينفث دخان سيجارته، وجدته تهمهم بعد كل نشرة أخبار: "شو اللي عم بيصير يا ناس فهموني؟ مش قالوا بالراديو إننا صرنا على أبواب عكا ويافا؟ والله أنا سمعته بدانتي، هذا اللي بيحكي بالراديو. شو صار هلق فهموني؟"

كان أبوه يحني رأسه ويصمت، ويظل جده على جلسته يبحلق في الجدار أمامه. جدته كررت سؤالها مرات ولم تسمع الجواب فصمتت. بعد أيام وصل الحاكم العسكري الإسرائيلي إلى غزة وأصدر أوامره أن البحر ورمله، والبيوت المطلة عليه، للسكان الجدد وحدهم.

تلبَّسه حزن عجز عن الهروب منه. حاول أن يذكِّر نفسه أن أمه وأباه في بيته هنا في القاهرة وأن يفرح بوجودهم، لكنه تمنى أن يكون هو عندهم هناك في بيتهم في مخيم جباليا مع شقيقيه. أحس انه يفتقد غزة ويشتاق لها ولكل تفاصيل الحياة فيها وكأنه لم يغادرها إلا بالأمس القريب. في إحدى الليالي شكى لسمية ما به. قال إنه اشتاق لفلسطين. حاولت أن تهدئ من روعه وتحنو عليه: "طول بالك يا غريب. ما فيش باليد حيلة. فلسطين أرض الفلسطينيين وحيجي يوم يلاقوا فيه الحل المناسب عشان الناس ترتاح. المهم أمك وأبوك عندك إفرح بيهم." همهم: "مشتاق لإخوتي ولبيتنا ولغزة وبحرها نفسي أرجع وأشوفها." أسرعت تقول: "مين عارف إيه ممكن يحصل. المهم، مصر عملت إللي عليها، ودلوقتي كل واحد لازم يكون مسؤول عن أرضه." صمت ولم يكرر شكواه. وجدها تتهرب من سماع حكايات أبيه وأمه وتتشاغل عنهم بالأولاد وشؤون البيت، أو تجلس صامتة دون أن تنبس بكلمة. حين عاتبها قالت له إنها لا تحب الحديث عن الاحتلال لأنه يعني المطالبة بالتخلص منه وهذا يقود إلى الحرب، والحرب ستجر مصر إلى ويلات هي في غنى عنها.

أحس أن هناك فجوة تتسع بينهما. كان عليه أن يخفي ما به كي يرضيها. يخفي الألم والشوق والحنين. مع الأيام، لم يعد قادراً على فعل كل ذلك. فكل ما يشغل فكره أو يستثير مشاعره أو يصاعد حماسته، لا تستجيب له بل ترفضه وتتجنبه، وكل ما يشغل فكره، لا يعنيها من قريب أو بعيد، لذلك عليه هو الفلسطيني الذي يملأه الألم من كل ما يمس فلسطين وأهلها، أن يصمت ويخفي مشاعره كي لا يفسد حياته معها. سمية دربت عقلها على عدم فهم هذا النوع من المعاناة، لا لأنها لا تريد الخير لفلسطين وأهلها، ولكن لأنها لا تريد أن تسمع أو تشارك في الحكايا التي تستفز المشاعر وتؤجج الحروب. مع الوقت اختنق بصمته، واتخذ قراره أن يطالبها بالانفصال حفاظاً على ما بينهما من ود بعد زواج دام عشر سنين.

كان قراراً مشتركاً وتم كل شيء بهدوء وحكمة كي لا ينزعج الأطفال، فقد كان نور في الثامنة وناهد في السادسة. قالت له بهدوئها المعهود: "سنكون أقرب من بعضنا بعد الطلاق، ونظل أصدقاء، وتستعيد حريتك لتكون من تريد وتفعل ما يسعدك. أنا لن أكون سجانك، فأنت إنسان صاحب فكر وذكاء وتستحق كل الخير."

أقلقته فكرة أنه سيبتعد عن أولاده، ويتركهما في رعاية سمية التي لها حق حضانتهما، وازدادت مخاوفه بعد أن قرر دراسة الدكتوراه في لندن، بعد أن حصل على قبول للعمل كأستاذ مساعد أثناء الإعداد لأطروحة الدكتوراه. تركهما وجاء إلى لندن وحاول على مدى السنين أن لا يجعل بعده عنهما حرماناً من أبوته لهما. كان يزورهما باستمرار ويدعوهما لقضاء الإجازات المدرسية معه. وحين أنهى نور دراسته الجامعية في القاهرة، تكفل بمصاريف دراسته للماجستير في العلوم التطبيقية في جامعة كارديف في ويلز. ثم جاءت ناهد لحضور دورة لستة شهور في كتابة السيناريو بعد تخرجها من معهد السينما. أدرك حين أمضى الاثنان أيام العطل معه هو وسهام، انتماءهما له رغم البعاد، وأنهما يتفاعلان مع العديد من القضايا التي يؤمن بها بشكل منطقي رغم أنه تركهما يكونان ما يريدان أن يكوناه، خاصة بعد أن أدرك أنهما ورثا عنه القدرة على البحث عن الحقائق.

في الفترة التي قضاها نور في جامعة كارديف، كانت سهام تدعوه لتمضية أيام العطل معهم. مع تعدد زياراته لهم، بدأت بينه وبين سهام صداقة ومودة أتاحت لها أن تناقشه في موضوعات كان هو يتجنب الحديث فيها معه. سمعهما مرة يناقشان فكرة أن عذاب الفلسطيني في الشتات "عذاب عن بعد"، كما يسميه نور، لأنه لم يدخل السجون أو يعيش الحروب أو يفقد الأبناء في فلسطين. بعد نقاش طويل مع سهام، همهم نور: "خلاص يا تانت سهام مش حقول عذاب عن بعد، حاسميه، عذاب البعد."

اليوم وبعد كل تلك السنين يدرك أن نور وناهد، تربيا على حبه بفضل سمية التي حافظت على الروابط الأسرية بينه وبين أولاده، وأبقت على الصداقة والود معه، وتقبلت سهام بمودة ورحابة صدر، واستطاعت أن تقيم علاقة طيبة معها مذ زارتها في القاهرة لأول مرة. كان لقاءاً ودوداً مع الأولاد أيضاً. تضاحك نور وهو يهمس له: "برافو بابا عرفت اتنقي بصحيح. إنتوا الإثنين لايقين على بعض قوي قوي." أما ناهد فأصرت بعد أيام أن ترافقها "تانت سهام" في جولة في السوق. همست له: "عشان تساعدني أشتري هدية لماما، أصلو ذوقها حلو خالص." يومها أدرك أن العلاقة بين سهام وأولاده وأمهم ستسير في الطريق الصحيح.

عاد يدور بعينيه في الوجوه الصامتة حوله. ما يزالون على جلستهم. سهام مستكينة قرب منى، وعبد الواحد يحيط وجهه بكفيه الكبيرين. لم يتغير كثيراً رغم السنين، هو نفس الرجل الهادئ الرزين الذي التقاه لأول مرة في اجتماعات الطلبة الفلسطينيين في القاهرة وجمعهما بعد سنين لقاء في الكويت في بيت صديق مشترك. كان عبد الواحد قد وجد عملاً في الكويت في مشروع ضخم لاستصلاح الأرض، ودارت بينهما أحاديث وطدت الروابط والود، خاصة أن عبد الواحد كان يفعل ما يفعله هو، يعمل ليوفر ما يحتاجه لإكمال دراسته في جامعة آيوا المتخصصة في العلوم الزراعية. قال له إنه حزين جداً لأن والده باع قطعة أرض ثانية ليساعده في إكمال تعليمه، لكن ثمنها لن يكون كافياً لدفع مصاريف الجامعة والسكن لسنتين. بيع الأرض يحزن الفلسطيني، فكل شبر منها يعزز كينونته على أرضه. فرغم حبه للعلم وتفوقه لا يرى فيه بديلاً عن الأرض. قال له مرة: "يا أخي الفلسطينية مصدقين فكرة أن العلم تعويض عن الأرض. أنا مش مكتنع بهذا الكلام. لا شيء يعوض عن الأرض. طب أنا مهندس زراعي وين أزرع بدون أرض؟ وأنت مهندس مدن وين بدك تبني مدنك في الكمر وللا في المريخ؟" أحس يومها أنه كمن يستمع إلى نظرية جديدة للنسبية.

عبد الواحد فلاح إبن فلاح، أراد له أبوه أن يحصل على تعليم عالٍ لأنه الإبن الوحيد لأسرة من ثلاث بنات، فأرسله إلى القاهرة ليحصل على شهادة التوجيهي المصرية ويدخل كلية الزراعة في جامعة القاهرة. بكى يوم اضطُر لبيع قطعة أرض لجاره ليوفر تكاليف الدراسة لإبنه. غالب حزنه وهو يقول لمن حوله: "عبد الواحد رح يدرس زراعة في جامعة الكاهرة. ولما يرجع رح يعلمنا كل اللي اتعلمه." قبل أن يدخل عبد الواحد جامعة القاهرة بدأت حرب عام سبعة وستين ودخلت قوات الاحتلال الإسرائيلي مدن الضفة مما جعل دخوله مدينة طولكرم، ثالث أكبر مدن الضفة الغربية بعد الخليل ونابلس، وخروجه منها صعباً. مع الأيام لم يعد أبوه يريده أن يعود لزيارتهم خوفاً من أن تمنعه سلطات الاحتلال من العودة للقاهرة لإكمال دراسته. بعد تخرجه بدرجة الشرف، باع أبوه قطعة أخرى من أرضه الزراعية وتبرعت أمه بقطع من مصاغها ليكمل دراسته هذه المرة في أمريكا. صار والده يردد: "رح يجيب شهادة أكبر في الهندسة الزراعية من جامعة في أمريكا ذات نفسها، اسمها أيوه."

رغم كل التضحيات، أدرك عبد الواحد أن المبلغ لن يكفي لسنين العيش في أمريكا ودفع أقساط الجامعة، فقرر أن يذهب للعمل في الكويت لسنتين ليوفر ما يحتاجه من مال. تفوقه، سهَّل حصوله على قبول من جامعة آيوا المتخصصة في الدراسات والبحوث الزراعية. بعد سنتين، التحق بالجامعة. مع نهاية العام

الدراسي الأول، طلب منه أساتذته أن يتوسع في موضوعه، "استصلاح الأرض الزراعية وتطوير الري في الدول النامية"، ويعده لرسالة الدكتوراه بدل الماجيستير. في العام التالي، حصل على الشهادة بدرجة الشرف. فعرضت عليه الجامعة العمل في الهيئة التدريسية. رفض العرض وقرر أن يعود لطولكرم. وجد نفسه مرة ثانية بعد غيبة ثمان سنوات في بيت أهله في طولكرم. قرر أن يبدأ العمل في أرض لهم لم يزرعوها منذ سنين ليعوض أباه عمّا باع من أرض زراعية. ثم كانت المفاجأة التي غيرت مسار حياته، أكتشف وجود نبع للماء العذب فيها.

قدم طلباً لشراء معدات للري وأسمدة لمشروعه. لكنه واجه مُساءلة وعقبات بحجة أن الأرض قريبة من مستوطنة يتم توسيعها. بدا واضحاً أنهم يريدون التلاعب لمصادرة الأرض ونبع الماء العذب فيها لتكون جزءاً من المستوطنة الجديدة التي تبنى قربها. كتب رسائل للمسؤولين الإسرائيليين في قطاع الزراعة يحتج على ما يحدث. رُفضت كل طلباته بحجة أنها لا تتناسب مع الوضع الزراعي في منطقة طولكرم. فرفع شكواه إلى المحاكم. بعد أيام تم اعتقاله ووضع في سجن الجلمه، سجن قديم بناه البريطانيون في سنين الانتداب، واستعمله الاحتلال الإسرائيلي، وبنى حوله جدراناً إسمنتية يصل ارتفاعها إلى أربعة أمتار تعلوها أسلاك شائكة.

أمضى ستة شهور وبضعة أيام في المعتقل التابع للسجن. كان النظر في قضايا الموقوفين يتم كل يوم ثلاثاء في بناية قريبة من السجن. يخرجون السجناء ويرغمونهم على السير إلى مقر المحكمة مكبلي الأرجل بالسلاسل عبر حقل مليء بالنباتات الشائكة. وحين يصلون المحكمة، يتم تمديد اعتقالهم لأسبوع آخر، لتظل الأيام تتراكم دون محاكمة السجين. قال له مرة: "تخيل واحد زي طويل عريض لابس بابوج أبو أصبع بلاستيك وماشي ورجليه مربطة بالسلاسل على الشوك من غير ما يقول آخ وكل أسبوع بتلاقي الشوك مجرح رجليك وفاتح جروح الأسبوع اللي قبله."

بعد شهور، أطلقوا سراحه بشرط أن يغادر الضفة الغربية، لأنهم ليسوا بحاجة لخبير زراعي فلسطيني مُصرّ على زراعة أرض فيها نبع ماء قريبة من مستوطنة. كان الحكم يقضي أن لا يعود إلى طولكرم وإلا حكم عليه بالسجن. هذه هي الطريقة المتبعة، السجن أو الإبعاد كلاهما يحقق نفس النتيجة. المهم أن لا يكون الفلسطيني جزءاً من الحياة في مدن الضفة. النفي القسري جعله رغم الدراسة والتخصص والتفوق، خبيراً

زراعياً ممنوعاً من العيش في مدينته أو زراعة أرضه، لأن إسرائيل لا تريد كفاءات فلسطينية في البلد أو عقول تفكر. سياسة مازالت تتبعها في مدن الضفة الغربية ما أمكنها ذلك.

جاء عبد الواحد للعيش في عمان لأنها قريبة من طول كرم. وجد عملاً في شركة تعمل في استصلاح الأرض في الغور وتركز على تطوير بساتين النخيل. ثم تعرّف على منى، التي كانت أيامها حديثة التخرج وتعمل في مستشفى الخالدي أحد أشهر وأقدم مستشفيات عمان، يوم ذهب لإجراء فحص روتيني لفصيلة دمه طالبته به الشركة التي يعمل فيها. وجد نفسه يجلس أمامها عبر طاولة صغيرة عليها أدوات طبية. شمر عن ساعده ومد ذراعه باتجاهها لتأخذ عينة من الدم. تلمست ذراعه في عدة مواقع وهمست: "متأسفة بس مش لاقية الشريان". تضاحك وهو يقول: "مهو الكل كاعد يسمّ في بدني لمّا نشفوا شراييني." تطلعت إليه باستغراب. أسرع يقول: "شو بدي أحكيلك مين وللا مين." اختصر لها حكايته: " أنا مبعد منفي من بلدي ومحروم من عيلتي وأرضي. يعني خلص بطَّلت فلاح أزرع أرضي صرت أشتغل في أرض الناس. حتى أهلي بطلوا فلاحين، ماعدش في حدا يزرع ويكلع، أبوي كبر وكعد في البيت، وإخواتي البنات أتجوزوا وتركوا طولكرم، وأنا الفلاح إبن الفلاح مش مسموح لي أزرع أرضي ولا حتى أمشي على ترابها."

بدا عليها التأثر. ذكَّرت نفسها أنها ممرضة تؤدي وظيفتها في مكان عملها وتتحدث إلى شخص جاء لفحص دمه. لكن عبد الواحد كان راغباً في الحديث. عرَّفها بنفسه، "عبد الواحد عبد المعطي عبد الرزاق من طولكرم. أسمي كثير مكركب بس أنا اتعودت عليه. مبعد إلى عمان بعد أن سجنوني أكثر من ستة شهور. عندي دكتوراه في الهندسة الزراعية من جامعة أيوه." لم تتمالك نفسها من الابتسام وهو يلفظ آيوا، وكأنه يقول أيوه باللهجة الفلسطينية. رأى ابتسامتها أسرع يقول ضاحكاً: "عظيم دايماً بخلي الناس يضحكوا لما بقولها زي ما بيقولها أبوي.". حاولت أن تكتم ضحكتها وهو يقلد أباه. عاد يقول إنه يحب عمله في شركة استصلاح الأراضي، ويحلم أن يجعل ما يستصلحه مثل الأراضي الزراعية في أمريكا، فنخيل التمر المدجول ستطرح تمراً ممتازاً في الموسم القادم.

سحبت الإبرة من ذراعه وهمهمت أن مهمتها انتهت ويمكنه أن يغادر. تسارعت دقات قلبه وهمس: "ما قلتيليش شو اسمك؟" أسرعت تقول وهي ترتب أدوات فحص الدم على الصينية الكبيرة أمامها: "سيستر منى." قرَّب وجهه منها وهمس: "قصدي الاسم الكامل يا سستر منى." قامت من مكانها وهي تقول: "سيستر منى عثمان."

بعد أيام أخبرتها عمتها بفرح لم تستطع أن تخفيه، أن هناك عريساً من طولكرم ابن ناس ودارس في أمريكا في مكان اسمه أيوه يريد أن يتقدم لخطبتها بعد أن رآها في المستشفى. صمتت عمتها لحظة وعادت تقول: "قالولي اسمه بس كأني نسيته، أظنه عبد الواحد، أيوه عبد الواحد الدكتور عبد الواحد." ابتسمت كادت تقول لعمتها اسمه الكامل الذي بقي في ذاكرتها. عادت عمتها تقول: "باين عليه عريس مرتب بس أهله بطولكرم ويمكن ما يقدروا يحضروا الخطبة إذا ما سمحولهم يجوا على عمان." جاء يخطبها مع مجموعة من معارفه الفلسطينيين وأعتذر أن والده مازال ينتظر موافقة السلطات الإسرائيلية على مجيئه إلى عمان وعودته إلى طولكرم. رحب به أهلها ووافقت هي على العريس. أعلنت خطوبتها على المهندس الزراعي عبد الواحد عبد المعطي عبد الرزاق. جاء أهله، والده ووالدته وشقيقاته الثلاث وأولادهما. وضع خاتماً ماسياً في إصبعها وألبسها إسورة تناسب الخاتم. حين جلسا قرب بعضهما تنهد بعمق وهمس وهو يمسك بيدها: "أنا بحبك يا منى. لأ غلط. أنا غركان بحبك يا منى." ابتسمت وأحنت رأسها وهي تهمهم محاذرة أن يسمعها أحد: "وأنا كمان."

بعد ولادة ابنتهما الكبرى زينة، قررا المجيء إلى لندن بعد أن وجد عبد الواحد عملاً كأستاذ في جامعة لندن. في لندن دخلت منى دورة إعداد، ووجدت عملاً في مستشفى ويلينغتون في شمال لندن. كانت سعادته لا توصف حين علم أن صديقه سيأتي إلى لندن ليعمل في نفس الجامعة التي يعمل هو فيها. التقيا بعد غيبة سنين. مع ولادة ابنتهما الثانية ياسمين، بدا أنهما سيستقران في لندن فلم يعد له في طولكرم ما يعود إليه بعد وفاة والديه ومغادرة شقيقاته الثلاث طولكرم واستقرارهن مع أزواجهن.

يوم عرض عليه أن يرافقه في العودة إلى فلسطين ليقدم خبرته العلمية والمعرفية للدولة الفتية التي بدأت تباشيرها في غزة، قال له: "غزة إللي بقيت. أرض أبوي راحت بعد ما اتوفى استولوا عليها وصادروها وأنا مبعد والبنات ما بيورثوا أراضي." أعد تقريراً مفصلاً عن تطوير الزراعة في غزة من أجل تحقيق الاكتفاء الذاتي، وطرق زيادة الإنتاج الزراعي وتحسين الري لتصبح غزة قادرة على إطعام نفسها وتصدر ما يفيض عن حاجتها. كان مشروعاً يعتمد فكرة التعاونيات الزراعية المدعومة من الدولة التي تشغل الفلاح وتوفر له العيش الكريم وتنتج كل ما يمكن زراعته وتربى حيوانات المزارع، لتوفر اللحوم والبيض ومنتجات الألبان. مشروع اشتمل حتى على معامل لتجميد وتعليب الفواكه والخضروات.

لم يكن قد مر على زواجه من سهام سوى أسابيع قليلة حين بدأت رحلة تحقيق حلم العودة إلى فلسطين. ذهبوا هم الأربعة، عبد الواحد، الخبير الزراعي وزوجته منى الممرضة الدربة، وهو غريب الأستاذ الجامعي المتخصص في هندسة المدن وعروسه سهام التي تملك الخبرة لتعليم اللغة الإنكليزية. لكن الحلم الوردي سرعان ما تبدد وتلاشى، بعد أن تبين أن المسؤول الفلسطيني لم يكن مهتماً لا بالزراعة وهمومها وما تحتاجه من صبر وجهد، ولا بتوفير فرص العمل ومحاربة البطالة، ولا بالتقرير الاستشاري الذي أعده الدكتور غريب عطا الله الأستاذ المحاضر في جامعة لندن حول التوسع العمراني في غزة وكيفية تقييده بالقوانين الدولية. تضاحك أحد المسؤولين وهو يقول: "البناء في غزة مشمحتاج لقوانين دولية هينا عم نبني أبراج من خمستعشر طابق." حتى خبرة سهام محمد في تعليم الإنكليزية للبالغين التي يمكن أن ينتفع بها من يذهبون إلى مباحثات ويوقعون اتفاقيات في أمريكا والدول الغربية، لم يكن أحد يحتاج لها لأن الجميع أوهموا من حولهم أنهم يتكلمون اللغة الإنكليزية بطلاقة ويفهمون كل تفاصيل ما يجري في المحادثات والاتفاقيات. أما منى، الممرضة المتمرسة، فلم يوافق المسؤولون على تعينها، لأن الكفاءة والخبرة لمن لم يتوسط له أحد، لا تعني شيئاً لمدراء المستشفيات.

حاول أن يتجاوز خيبة أمله وانتهاء الحلم الذي رسمه في خياله لتقديم ما راكم من خبرات. اكتفى بلقاء أمه وشقيقيه وأولادهما. حين ضمته أمه بذراعيها المعروقتين. أغمض عينيه وتنفس بعمق. أحس أنه عاد طفلاً صغيراً. همس: "يمه يا حبيبتي. ضميني يمه ضميني." احتضن شقيقيه علي وعدنان وبكوا كما تبكي الرجال. دار بين أولادهم. حاول أن يقول لهم إنه العم الذي لم يعرفوا. وزع عليهم هداياه. فرح بعدنان الشقيق الأصغر الذي أنجب بعد سنين من الزواج إبناً وينتظر مولوده الثاني. أحس أن كل ما عاشه بعيداً عنهم تلاشى في لحظة وعاد الفتى الذي يساعد أباه في البناء. أمضى بينهم اياماً جددت الماضي وغسلت الكثير من المخاوف والهموم. زار قبر أبيه وترحم عليه وقدم ما يقدر عليه من مساعدة، وتعهد بتعليم من يرغب من الصغار في الجامعات.

كانوا أربعة من أصحاب الكفاءات التي تنتفع بها المجتمعات النامية، الزراعة والعمارة والتعليم والصحة، مع ذلك لم يجد أي منهم الفرصة لتقديم ما لديه من معرفة وخبرة، فعادوا إلى حياتهم في لندن وبينهم اتفاق غير معلن، أن لا يعترفوا بأن أملهم خاب، رغم أنهم أمضوا الساعات الطوال في الحديث عن تجربتهم ونقد ما عاشوه وشاهدوه في الدولة الفلسطينية الجديدة.

عاد يتساءل، لم يجلس أقرب الناس إليه واجمين صامتين هكذا؟ فجأة التفتت سهام نحو منى وهمهمت شيئاً وهي تنظر في ساعة يدها. خيل إليه إنها قالت شيئاً عن تأخر وصول بعض الأشخاص. فكر أن يستفسر منها لكنه آثر الصمت فهي مشغولة عنه بشيء ما. فجأة قامت من مكانها ووقفت قربه وهمست: "غريب حبيبي إنتَ سامعني؟" همهم باسماً: "طبعاً حبيبتي سامعك. سامعك وشايفك بس مش عارف شو مالك." بقيت واقفة بقربه تتأمله بصمت. مسحت على رأسه بيدها. كان في لمستها ما اعتاد من حنان. حاول أن يمسك بيدها لكن يده كانت ثقيلة. عادت تجلس في مكانها. تأملها. مازالت جميلة رغم السنين. هي امرأة ولا كل النساء، وهو محظوظ بها، أحبته وتزوجته بعد أن عاشت سنين ترفض الارتباط والحب والزواج. حين حكى لها عن قصة زواجه وطلاقه، استجمع شجاعته وسألها إن كانت على علاقة أو مخطوبة. قالت إنها كانت لكنها رفضت الحديث في التفاصيل. همهمت بشيء من الخجل إنها لم تحسن يوماً الحديث عن هذا "إللي صار" في حياتها وجعلها ترفض الزواج كل هذه السنين. ثم وجدها يوماً تحكي له حكايتها بكل تفاصيلها، وهو يستمع إليها بكل حواسه.

كانت طالبة في السنة الثانية في الجامعة، وكان هو أحد أصدقاء أبيها الفلسطينيين، جاء يزورهم لأول مرة في بيتهم مع مجموعة من الأصدقاء وزوجاتهم. هو جاء وحده لأنه مطلق. التقت عيونهم وهي تقدم له قدح الليمونادة. أحسست بدوار خفيف وبتسارع دقات قلبها. حاولت أن تتجنب النظر إليه طوال السهرة، رغم أنها كانت تشعر بنظراته تلاحقها. بعد العشاء، طلبت منها أمها أن تعد القهوة للضيوف. ذهبت إلى المطبخ. وضعت غلاية القهوة على الفرن. أضافت السكر والبن ووقفت ترقب القهوة حتى تصل إلى درجة الغليان. أحسست بخطوات تقترب. رأته يقف عند باب المطبخ يبتسم. خطا نحوها وهمس: "هل تؤمنين بالحب من أول نظرة؟ أنا شخصياً لم أكن أصدق أبداً إمكانية حدوثه. لكن يبدو أنه حدث لي، أنا بحبك." تعلقت عيناها بوجهه. بدا وسيماً وهو يبتسم لها. انتبهت على صوت فوران القهوة وانسكابها على الفرن. أسرع يقول وهو يقترب منها أكثر: "فداكي ولا يهمك. سكب القهوة فأل حسن". ملأت أنفها رائحة عطره. عاودها الإحساس بالدوخة. أغمضت عينيها. قرب وجهه منها ومس بشفتيه خدها عند زاوية فمها. استدار وغادر المطبخ. بقيت في مكانها لا تعرف كيف تلملم نفسها. سمعته يقول لأمها في الممر القريب: "أظننا مش رح نشرب قهوة الليلة سهام دلقتها".

لم يغمض لها جفن تلك الليلة. في الصباح وجدت نفسها تدور في البيت على غير هدى. رن جرس الهاتف. رفعت السماعة. جاءها صوته: "كنت واثقاً أنك ستكونين من يرفع السماعة. كيفك يا سهام يا

حبيبتي؟ بدي أشوفك. سأنتظرك غداً قرب كليتك عند الرابعة. سأكون في سيارتي عند محل بيع الكتب الذي تعرفينه." أحست بالدوار يلفها من جديد. صاحت شقيقتها هيام: "مين يا سهام عالتلفون؟" أسرعت تجيب: "صاحبتي مها." عادت شقيقتها تقول: "ما اتطولي مستنية مكالمة من لميس." سمعت دقات قلبها وهي تهمس: "ألو." همهم: "حبيبتي أرجوك وافقي؟" أسرعت تقول: "طيب طيب. بكرة إن شاء الله."

وجدت نفسها تدخل عالماً سحرياً مع رجل ناضج أغرقها بكلامه وغزله وهداياه الصغيرة. قال إنه يريد أن يتقدم لها، ولكنه يخشى أن يرفضه أهلها لفارق السن بينهما، وحتى إن حدث ذلك، سيعقد قرانه عليها ويضع الجميع أمام الأمر الواقع. أخافتها فكرة الخروج عن طاعة والديها، كيف تتزوج دون علمهما؟ قررت أن تحكي لأمها لتتوسط لها عند أبيها. جاء رد فعل أمها هادئاً وهي تقول: "بس يا سهام يا حبيبتي، هذا رجال قد أبوكي متجوز ومطلق وعنده شب وصبية شو بدك فيه يا حبيبتي؟ انتي يمه صبية زي الوردة المفتحة، وميت شب بيتمنوا ضفرك شو بدك برجّال كله مشاكل." همهمت محاولة أن تستعطفها: "بعرف يمه. كل اللي عم بتقوليه صح، بس أنا بدي هذا الرجّال. بدي اياه يمه ومش مهم عندي إنه أكبر مني وإنه مطلق." عادت أمها تقول: "يا حبيبتي إفهمي إللي عم بقوله، بنته أصغر منك بكام سنة بس، وإبنه شب مش رح يقبل تكوني بدل إمه." همهَمَت: "مش فارق معي يمه مش مهم." خرجت أمها عن هدوئها وارتسم الخوف في عينيها: "كيف يعني مش مهم؟ كيف يعني فهميني؟ اتكونيش فرطتي بحالك معاه. قوليلي شو اللي بينك وبينه يا سهام؟" صرخت في وجه أمها: " فش إشي يمه بيني وبينه غير إني بحبه وهو بيحبني. اطمَّني يمه بعدني زي ما أنا بنت بنوت." تصاعد غضب أمها بعد أن أحست بجدية الموضوع. همهمت من بين أسنانها: "يا عيب الشوم عليه رجال طويل عريض بيضحك على بنت صغيرة. يا عيب الشوم عليه. لا احترم الرجل الذي وثق فيه وأدخله بيته، ولا احترم حرمة البيت والعيلة واعتدى على بنته." صاحت في أمها: "يمه ما اعتدى على شيء. أنا مش بنت صغيرة ينضحك عليها. وهو يمه ما عم يضحك علي بدو يتزوجني ويعمل عرس ويعزم الي بدك ياه." ركعت أمام أمها وقبلت يدها: "يمه أنا بحبه زي ما هو بحبني. حبيتو من أول يوم شفته فيه يمه. حبيتو من يوم ما دلقت القهوة على الفرن لأنه ساعتها قاللي إنه بيحبني. إفهمي يمَّه من شان الله إفهمي. إفهمي يا حبيبتي وساعديني وقولي لأبوي إنه يوافق على زواجنا يمه."

رفض أبوها الفكرة كلها وأصر على عدم الكلام في الموضوع. اختار الصمت وسيلة لإعلان رفضه التام. كان تصرفاً لا يشبه ما عودها من حديث ونقاش، كان خائفاً أن يفقد قدرته على إملاء رأيه، فصمت. شقيقتها هيام كانت الوحيدة التي تعاطفت معها. نصحتها أن تفكر جيداً وإن استعصى الحل، تختار ما يريده

قلبها. فكرت أن تعمل بنصيحة شقيقتها هيام وتتزوجه وتضع الجميع أمام الأمر الواقع، لكنها لم تكن تملك الشجاعة الكافية. تمنت في دواخلها أن يحدث ذلك دون أن تكون لها يد فيه، كأن يخطفها ويأخذها إلى مكان بعيد ويرغمها على الزواج، لكنه لم يفعل شيئاً من هذا، تركها تقرر ما تريد أن يفعل من أجلها.

ثم حدث ما يشبه ما كانت تتمناه. اتصل بها يوماً وعرض عليها أن يتزوجها ويأخذها إلى الكويت حيث سينتقل عمله التجاري. وافقت. أخذها إلى المحكمة الشرعية مع شاهدين من معارفه. سألها القاضي إن كانت تقبل الزواج من فلان الفلاني على مهر مقدمه كذا ومؤخره كذا؟ أجابت بنعم. عاد يسأل هل استلمت مهرها أجابت بنعم. وقعت على العقد ووقع هو والشاهدين وأصبحت زوجته شرعاً. جلست قربه في السيارة. قدم لها علبة من المخمل الأزرق، فيها خاتم زواج ماسي. تمنت أن تضع الخاتم في بنصر يدها اليسرى وتقول للجميع إنها تزوجت. لكنه رجاها أن تنتظر بضعة أيام ليتم معاملة تسجيل زواجهما ليحصل لها بموجب ذلك على سمة خروج من العراق وفيزا لدخول الكويت.

مرت بضعة أيام. كان يكلمها كل صباح ومساء في موعد محدد، ليؤكد لها حبه وشوقه. في صباح يوم لم يتصل بها كعادته. لم يقلقها ذلك لأنه أخبرها أنه ذاهب للحصول على الفيزا الكويتية بعد أن يستلم الأوراق من مديرية السفر والجنسية. رن جرس الهاتف، رفعت شقيقتها هيام السماعة. سمعتها تردد كلاماً غريباً. ثم جاءت إليها، وقفت أمامها، لفَّت ذراعها حولها وهمست: "سهام حبيبتي لازم أنروح مشوار أنا وإنتي. بابا مستنينا هناك." تملكتها حالة من الذعر. صاحت: "شو في يا هيام شو في، وين رايحين؟" أسرعت هيام تقول: "في شخص إسمه المقدم فتحي من مركز شرطة منطقة زيونه طالب يشوفنا." قالت لها كلاماً لم تفهم معظمه، سوى إن عليها أن تذهب إليه لأن والدهما ينتظرهما هناك. جلست في السيارة قرب شقيقتها صامتة. تلاحقت في رأسها الأسئلة، من هو هذا الرجل ولم استدعاها؟ ولم ينتظرها أبوها معه؟ هل اكتشفوا موضوع الزواج؟ هل سيرغمونه على تطليقها؟

توقفت السيارة عند مكان تجمع فيه الناس حول سيارة للشرطة. سمعت كلاماً عن اصطدام سيارة بعامود النور وسقوطه عليها. تقدم والدها منها، لفَّها بذراعه وهمس: "طولي بالك يا سهام. طولي بالك يا حبيبتي." رأت في يده مجموعة من الأوراق الرسمية. عاد يقول: "سهام بابا بدي تروقي وتفهمي اللي صار." فهمت. مات زوجها في حادث سير مروع. ووجدوا كل الأوراق التي تحمل اسمها في سيارته المحطمة، عقد الزواج

وإذن بمرافقتها له كزوجته إلى الكويت. كان قد أنهى للتو معاملات السفر إلى الكويت واشترى تذكرتي سفر وقاد سيارته بسرعة ليخبرها الخبر السعيد فارتطم بعامود النور الذي هوى على السيارة وقتله.

أنهت حكايتها. أحس أن كل ما يمكن أن يقوله سيكون بلا معنى. الشيء الوحيد الذي كان يمكن أن يقوله هو أنه غارق في حبها. لكن شجاعته خانته. خاف أن يبدو كنهّازِ للفرص، فالحب قد يملي الكثير من الانتهازية في لحظات ضعف من نحب. لم يفكر حتى أن يسألها عن تفاصيل ما حدث بعد ذلك، كيف كانت ردود فعل كل من لهم علاقة بهما؟ ماذا كان رد فعل والدتها؟ كل ما كان يشغله في تلك اللحظة، أنه يحب هذه المرأة التي تروي له قصة حبها لرجل آخر. تساءل، هل يمكن أن تحبه كما أحبت حبيبها الأول؟ تحايل على نفسه بمقولة أن الحب لا يتكرر بنفس التفاصيل لأنه كالنهر يتغير باستمرار. أحس بشيء من الغيرة من ذاك الحب الذي عاشته في سنين شبابها المبكر، الحب الأول الذي ملأ دنياها وانتهى نهاية درامية تصلح لأن تكون فيلماً سينمائياً من زمن الأبيض والاسود. حاول أن يتخيل ذاك الحبيب الذي مات وتركها في حزن تلبسها لسنين وسنين، جعلها ترفض فكرة الارتباط برجل غيره. حتى أن أمها كانت كلما رفضت عريساً، تقول وهي تحاول أن تحبس دمعها: "على كيفك يمه. بس والله عريس ما بيتعيَّب. بس شو بدي أقول، بكرة لما يجي نصيبك رح ترضي وعلى رأي المثل، خلي العسل بجراره لتيجي أسعاره."

كانت تتضاحك. فالمثل فيه الكثير من الحكمة، فالعسل الأصلي لا يفسد ويمكن أن يظل في جراره حتى يأتي من يعرف حق قدره. هو أحبها وتمناها وقدم دون أن يدري ما جعلها ترضى أن تمنحه ما في جرارها من عسل أصلي. بادلته حبه ورضيت به حبيباً وزوجاً، ربما لأنه عاش مثلها سنيناً، لم يعرف خلالها الحب، أقام بضع علاقات مع نساء التقاهن في حفل أو مناسبة اجتماعية، لكنه لم يرغب في استمرار ما بدأ، ولم يمنح أياً منهن مكاناً في غد أيامه. أحياناً كان يقول لنفسه أنه غير راغب في الدخول في تجربة جديدة قد تكرر تجربته التي لم تنجح، ولم يعتبرها يوماً فاشلة، فهناك فرق بين الفشل وعدم النجاح.

حين رأى سهام لأول مرة في محل بيع الكتب، أثاره جمالها الهادئ ونظرتها الذكية والطريقة التي تحدثت بها معه. ويوم جاءت ووقفت أمامه في المكتبة، أحس أنه يمتلك العالم. بعد أسابيع قليلة ولقاءات وأحاديث صارحها بحبه، قبلت به. لم يسألها إن كانت واثقة من مشاعرها. كان في عينيها كل ما يجيب عن أسئلته. حصل على الأوراق الرسمية وتزوجها في مكتب موثق العقود القريب من شقته. يومها احتضنه عبد الواحد

وهو يقول: "ربي يباركلك بسهام، ست ولا كل الستات. صبرت ونلت يا غريب." أحس أنه أرضى كل أهله وحصل على مباركتهم.

وجد نفسه معها في شقته الصغيرة. وقفت أمامه في فستان من الدانتيل الوردي الفاتح، تحمل باقة البنفسج. أمسك بيدها وأجلسها على الصوفا الجديدة. بدت جميلة فاتنة. قبلها. بادلته قبلته. أحس أنه يمتلك العالم بأسره. ضمها إليه. رفع وجهها نحوه. كانت تحاول أن تخفي خجل الفتاة التي تجاوزتها منذ سنين. تسارعت دقات قلبه. همست: "عن إذنك لحظة." قامت من جلستها. سارت نحو المطبخ وعادت تحمل باقة البنفسج في قدح من الماء وضعته على الطاولة الصغيرة أمامهما وجلست قربه. لفها بذراعه وخبأها في صدره. أحس بجسدها يرتجف. همس: "حبيبتي". استكانت على صدره، امرأة تستسلم لأول مرة للرجل الذي تحب.

انتبه على حركة في الممر المؤدي إلى الغرفة. فتح عبد الواحد الباب ودخل. وقف أمامه صامتاً. سمع لغطاً في الخارج. تعلقت عينا منى بالباب. وقفت سهام. دخل رجلان يحملان نقالة. غطت سهام وجهها وبدأت تنشج. احتضنتها منى. أحس بجسمه يرتفع عن الصوفا ويحط على النقالة. وضع رجل ثالث كمامة من البلاستيك على فمه وأنفه. سمعه يستفسر من سهام عما حدث بالضبط. ترددت كلمة تزحلق، دوخة وإغماء. سمع حركة ولغطاً. حاول أن ينادي سهام لكن العديد من الأغراب وقفوا بينه وبينها. وضعوه في مكان صغير فيه أجهزة كثيرة وأنابيب وأسلاك. رأى وجوهاً لا يعرفها. كلمه أحدهم بالإنكليزية: "هل تسمعني مستر أتا الله؟" نظر إليه وهمهم: "نعم نعم أسمعك وأراك واسمع كل ما يجري حولي لم لا تنتبهون لي حين أتكلم؟" ابتسم له الرجل وأجلس سهام قربه. أمسكت سهام بيده. سمع منى تقول لها من بعيد: "سنذهب أنا وعبد إلى المستشفى بسيارتنا." استغرب ذلك. همس لسهام: "شو في لوين رايحين يا حبيبتي ليش المستشفى شو في؟" أطرقت رأسها وهي تمسح على يده. هبطت برأسها نحو كفه وقبلتها وهي تهمهم: "سلامتك يا حبيبي ألف سلامة عليك." سمع صوت إغلاق باب كبير تبعه صوت يعرفه، دوي عالٍ، إنه في سيارة إسعاف. ماذا يحدث هل هو مريض؟ لكنه لا يشعر بأي ألم. لم هو في سيارة الإسعاف وإلى أين يذهبون به. عاد ينظر إلى سهام. همهم: "شو في يا سهام؟" لم تحرك ساكناً وبقيت مطرقة لا تجيب. استسلم لمصيره.

ساروا به في ممرات طويلة وعدد من الممرضات حوله. استقر به المقام في غرفة صغيرة. كان يسمع دقات قلبه وصفير الجهاز المعلق فوق رأسه. سهام جلست على كرسي صغير عند نهاية السرير. همهم لها: "سهام شو في؟ حبيبتي ردي علي." ظلَّت على جلستها. جاءت ممرضة وهمست لها شيئاً. خرجت إلى الغرفة الملاصقة لغرفته رآها من خلال الزجاج تتحدث إلى طبيب. دخلت الغرفة من جديد. وقفت بجانبه. همست: "حبيبي غريب إنت سامعني؟" ابتسم وهز رأسه: "طبعاً سامعك يا سهام." أمسكت بيده. حاول أن يحرك يده ويضغط على يدها. قامت من مكانها. نادت الممرضة. جاءت الممرضة تفحصت الأجهزة. دارت حوله وهي تقول باسمة: "مسز أتا الله ممكن جداً أن تحدث حركة في اليد أو ترمش العين أو يتحرك أحد أصابع القدمين. هي حركات لا إرادية لا أكثر ولا أقل ولا تعني شيئاً. يجب أن تفهمي مسز أتا الله أن لا أحد يعرف ما إذا كان يسمعنا أم لا." صاح: "طبعاً أسمعكم ما بكم؟ لم أنتم جميعاً مصرون على أنني لا أرى ولا أسمع ولا أتكلم أو أتحرك. أنا لا أفهم لم تفعلون ذلك. يا سهام أرجوك حاولي أن تسمعيني وتفهميني. أرجوك يا سهام أرجوك. لا أريد أن أكون هنا يا حبيبتي أريد أن أعود إلى بيتنا. أرجوك أريد أن أعود إلى بيتنا يا سهام."

حكاية سهام محمد

صحوت على رنين صاخب. فتحت عينيي. خيل لي أن سقف الغرفة يهتز. كان الرنين الحاد يملأ المكان. درت بوجهي نحو المنبه. إنه هذا اللعين. أسكتُه. حاولت أن أستوعب المكان والزمان. أنا في بيتنا أنام على سريري دون غطاء بملابسي التي كنت أرتديها أمس وصحوت للتو على صوت المنبه اللعين الذي ضبطته أمس على السابعة صباحاً. كان ذلك بعد انتصاف الليل، حين أوصلني عبد الواحد إلى البيت، واستلقيت على فراشي وغفوت بثيابي التي عليَّ. هاجمتني الحقائق، غريب في المستشفى، في غرفة العناية المركزة. قمت من فراشي. أخرجت من حقيبة يدي الورقة التي كتبت فيها رقم الممرضة المشرفة في غرفة العناية المركزة. جاء صوتها هادئاً: "حالته مستقرة. لا جديد مسز أتا الله." لا جديد، أي أنه ببساطة مازال كما كان يوم أمس في غيبوبة، كما قال لي الطبيب المناوب. غيبوبة. أي أنه غائب في رحلة لا يعرف أحد متى يعود منها.

خلعت ملابسي ووقفت تحت الدش. تتابعت قطرات الماء الدافئ على رأسي. حاولت أن أستجمع شتات عقلي. غريب في المستشفى في تلك الغرفة الصغيرة المليئة بالأجهزة. الفحوص الأولية لم تظهر أي إصابة في الدماغ، لكنه في حالة من اللاوعي، يسمونها، غيبوبة، كلمة تخيفني ولا يعجبني معناها. خرجت من الحمام وبدأت أرتدي ملابسي. بدا كل ما حولي موحشاً وأنا أدور وحدي في غرفة نومنا. دخلت المطبخ. أعددت لنفسي كوباً من القهوة. عدت أحاول استيعاب ما يحدث. تساءلت أهو حقيقة أم أنني أحلم؟ أطبقت بكفي على كوب القهوة. لسعتني حرارته. تنهدت بعمق. أنا لا أحلم. أنا صاحية أجلس في مطبخ البيت وأشعر بلسعة القهوة الساخنة على يدي. أنا بالتأكيد مستيقظة لكنني أتمنى أن أكون في حلم، كابوس أستطيع أن أصحو منه. أغلقت عيني لحظة. أحسست بقلبي يهوي وأنا أعيد الجملة التي كررتها لنفسي مرات منذ الأمس لكنني ومازلت عاجزة عن استيعاب معناها، غريب في غيبوبة. بدأت أهمسها لنفسي، غريب في غيبوبة، غريب في غيبوبة، جملة تختصر كل ما بي من خوف. هو انتظار لا حدود للزمن فيه. انتظار بلا يوم أو وقت أو ساعة. انتظار أن يعود الغائب من رحلة لا أحد يعرف إن كان منها عود.

حاولت أن أستعيد كل التفاصيل التي سمعتها أمس من الأطباء، لا أحد يعرف إن كان سيصحو أو متى سيحدث ذلك، لكن جسمه سليم يعمل بشكل كامل، وهذا يبشر بالخير رغم أنه في غيبوبة. الطبيب الذي فحصه قال لي إن ما سببَها هو ارتفاعٌ حاد مفاجئ في ضغط الدم، ومحاولة الجسم حماية نفسه بفرض شكل

من أشكال التخدير القسري على نفسه ليحمي الدماغ ويجد طريقة للتعامل مع ما أصابه من صدمة صحية عنيفة. فالغيبوبة كثيراً ما تكون إحدى وسائل الدفاع الذاتي للجسم. جسم غريب عانى من الضربة القوية التي أصابت رأسه حين ارتطم رأسه بالأرض، ويحاول أن يحمي نفسه.

كنت لحظتها في المطبخ حيث أستطيع أن أرى ما يحدث في غرفة الجلوس. قام من جلسته ليلتقط كتاباً من المكتبة. فجأة رأيته ينزلق ببطء على بلاط الغرفة ويتهاوى على ظهره متمدداً بشكل مستقيم على الأرض، ثم سمعت صوت ارتطام رأسه على الأرض بقوة. أسرعت نحوه. همهم ضاحكاً وهو مستلق على ظهره: "هل رأيت كيف تزحلقت؟" همست وأنا أحاول أن أضع ذراعي خلف رأسه: "نعم رأيت ذلك. كم مرة قلت لك أن لاتخلع حذاءك وتمشي على البلاط بجواربك الصوفية؟" بدأ يضحك. عدت أقول وأنا أقبل جبينه: "حبيبي هل أنت بخير؟ هل تستطيع أن تتحرك؟ هل يؤلمك رأسك؟" حرك ساقيه، تلمس رأسه ورفعها قليلاً عن الأرض. همهم وعيناه في عينيي: "أظنني بخير يا سهام." أسرعت أقول: "تحرك ببطء أرجوك يا غريب على أقل من مهلك." تضاحك وهو يرفع رأسه عن الأرض: "ما تخافي عمر الشقي بقي زي ما بيقولوا. بس لسه مش فاهم شو صار." رفع كتفيه ببطء عن الأرض. اسندته بذراعي وأنا أكرر طلبي أن لا يتحرك بسرعة. استند على ذراعيه ورفع جذعه. جلس وساقاه ممدودتان على الأرض أمامه. تحسس جسده بيديه وحرك قدميه بحركة دائرية وهمهم ضاحكاً: "أظنني لم أنكسر مازلت قطعة واحدة كما يقول الإنكليز."

جلبت له حذاءه المنزلي. ألبسته أياه. أحضرت له قدحاً من الماء. شرب منه. قلت إن عليه أن ينتظر قليلاً قبل أن ينهض. ابتسم وبقي على جلسته. ثنى ساقيه وبدأ يحاول النهوض. همهمت: "حبيبي على مهلك شوي شوي الله يخليك وأن أحسست بأي ألم خليك قاعد وسأستدعي الإسعاف." صاح: "لا شو إسعاف؟ لا تبالغي يا حبيبتي ما مالني شي." ساعدته على النهوض من جلسته ببطء. وقف في وسط الغرفة وذراعه حول كتفي. ضمني إليه وهمس: "حبيبتي أنا بخير لا تخافي." أسندت ظهره بذراعي وسرنا ببطء نحو الصوفا. أجلسته عليها وأنا أكرر سؤالي إن كان يشعر بألم في مكان ما من جسده. أكد لي إنه بخير فقط يريد أن يستلقي قليلاً. ساعدته على الاستلقاء ووضعت بعض الوسائد خلف رأسه. أحضرت له المزيد من الماء. شرب قطرات ثم أغلق عينيه وهو يقول: "ما بدي شيء خليني أنام شوي." مسست رأسه بشفتي، كانت حرارة جسمه طبيعية. جلست على الكرسي القريب. أغلق عينييه. همست: "هل أتركك ترتاح قليلاً وأعود إلى المطبخ لأكمل إعداد وجبة الغداء؟" ابتسم وهو يهز رأسه موافقاً. قمت من جلستي. قبلت جبينه وهمست: "حبيبي إن احتجت لشيء نادني". هز رأسه موافقاً.

بعد بضع دقائق عدت إلى غرفة الجلوس لأطمئن عليه. كان مازال مستلقياً كما تركته. اقتربت منه. كان تنفسه طبيعياً وعلى وجهه ابتسامة وقد استسلم للنوم. أتممت إعداد بعض الطعام وعدت إلى غرفة الجلوس. كان مازال مستلقياً على ظهره لم يحرك ساكناً. اقتربت منه وهمست اسمه. لم يستجب. لمست خده وعدت أهمس: "غريب حبيبي كفاك نوماً حان وقت الغداء." لكنه لم يحرك ساكناً. قربت وجهي منه ومسحت على خده وأنا أردد اسمه. ظل صامتاً لا يستجيب وعيناه مغلقتان وتنفسه منتظم. وضعت رأسي على صدره ناحية قلبه. سمعت دقات قلبه المنتظمة. عدت أهمس اسمه وأنا أهز كتفه برفق، لكنه ظل على صمته مستغرقاً في النوم. تملكني الخوف. ما به وماذا عليَّ أن أفعل؟ هل أطلب سيارة الإسعاف؟ درت حول نفسي مرات، ثم رفعت سماعة الهاتف الأرضي وطلبت منى. جاء صوتها ضاحكاً وهي تمازحني حول تأخر زوجها عبد الواحد في إحضار ما وعدنا من خضار طازجة. انهمرت دموعي وأنا أحاول أن أحكي لها ما حدث. تهدج صوتها وهي تقول إنها ستكون عندي خلال عشر دقائق. بمجرد وصولها، فحصت غريب ورفعت سماعة التليفون وطلبت سيارة الإسعاف. قالت لهم إنها حالة إغماء شديدة وإنها ممرضة فحصت النبض والتنفس والمريض بخير ولكنه لا يستجيب. بدأت تجيب عن بعض الأسئلة، هل المريض مصاب؟ هل ينزف؟ هل أصيب بكسر؟ وضعت سماعة التلفون وجلسنا صامتتين.

رن جرس الباب. كان عبد الواحد يحمل بعض الخضار الطازجة من بستانه الصغير. حكت له منى ما حدث في عجالة. بدا كطفل صغير على وشك البكاء. ضمته وهي تقول: "خير حبيبي إن شاء الله خير. سيصل المسعفون قريباً." جلسنا حول غريب صامتين ننتظر سيارة الإسعاف. كنت كل ما نظرت إلى وجهه يملأني شعور بأنه يسمع ويعي ما يجري حوله ولكنه لا يستطيع أن يستجيب. همست لمنى: "هل يسمعنا؟" همهمت: "لا أحد يعرف. بعض من دخلوا غيبوبة قالوا إنهم كانوا يسمعون كل ما كان يدور حولهم." حاولت أن لا أستسلم لمخاوفي، لكنها كانت أقوى مني. بعد انتظار طال لأن الحالة لم تكن حرجة، جاءت سيارة الإسعاف. وضعوا كمامات على وجهه وربطوه بأسلاك. جلست قربه في سيارة الإسعاف أحاول أن أستوعب ما يحدث. في المستشفى وضعوه في غرفة العناية الفائقة وأكدوا لي أنه بخير لكنه دخل في غيبوبة.

كانت الساعة تقارب الثامنة والنصف صباحاً، حين دخلت غرفة العناية الفائقة. ابتسمت لي الممرضة محييه. اقتربت من السرير. رأيته كما تركته بالأمس على وجهه كمامة الأوكسجين وحوله أنابيب وأسلاك. عيناه مغمضتان وعلى وجهه شبه ابتسامة. قربت وجهي منه وهمست: "صباح الخير حبيبي." تحية اعتدتها كل صباح منذ أكثر من ثلاثة وعشرين عاماً. أشارت لي الممرضة أن أجلس على الكرسي المقابل للسرير. همهمت بعض كلمات فهمت منها أنه تحت المراقبة لأربع وعشرين ساعة. جلست قبالته. زوجي وحبيبي مغرق في رحلة لا يعلم أحد إن كان سيعود منها. ما هذا الذي يحدث لنا. حياتنا معاً كانت دائماً هادئة. لم يخطر على بالي يوماً أنني سأواجه موقفاً كهذا، فمازلنا في سن تحدي المرض والتغلب على عجز الجسم، أو هذا ما ظننته. غريب أتم السبعين العام الماضي وأنا مازلت في الخامسة والستين. وجدتني ابتسم، لقد كبرنا فعلاً لكننا لازلنا نتشبث بما اعتدنا من صحة ونشاط. هذا على الأقل ما أشعر به. ربما لأن حياتي مع غريب كانت دائماً سهلة مريحة، ولندن كريمة معي مذ جئتها قبل سنين لأول مرة. مازلت أذكر تفاصيل ذاك اليوم. كان يوماً مطيراً في آواخر صيف عام ستة وتسعين سمعت قبطان الطائرة يقول وأنا أتابع قطرات المطر على زجاج نافذة الطائرة: "أهلاً بكم في لندن، الوقت الآن هو الثانية عشرة وتسع دقائق ظهراً حسب التوقيت المحلي لمدينة لندن. أعتذر لكم سيداتي وسادتي عن غياب شمس منتصف النهار، لكن يجب أن لا يغير ذلك من حقيقة مهمة، أن لندن مدينة جميلة مرحبة حتى في الأيام المطيرة. أرجو لكم إقامة طيبة فيها."

سرت في ممرات تمتد وتتعرج، وحولي مسافرون من كل انحاء العالم يحاولون اللحاق بما جاؤا لأجله وهم يتبعون إشارات تدلهم على الطريق، وصول المسافرين، مسافرو الترانزيت، الخروج وإستلام الأمتعة. بعد مسيرة طالت وصعود سلالم كهربائية، والسير على ممرات متحركة، وقفت في صف طويل عند حاجز "من يحملون جوازات السفر الأجنبية،" خلف خط أصفر مرسوم بوضوح على الأرض يحمل كلمات تقول"الرجاء الانتظار خلف الخط الأصفر". جاء دوري. وضعت أمام الموظف جواز سفري الأردني المؤقت الذي يحتاج للتجديد كل عامين، لأن من يحمله لا يملك رقماً وطنياً، أو بعبارة أخرى ليس مواطناً يستمتع بكل حقوق المواطنة، بل لاجئ فلسطيني. والفلسطيني يجب أن لا يستوطن في أي مكان، كي لا تضيع هويته وفقد ما يميزه، انه لاجئ فلسطيني. وعليه يجب أن يظل لاجئاً مشرداً مهما طال الزمن، لئلا تضيع هويته كما ضاعت أرضه وسلب بيته وحرم من حق العيش على الأرض التي يتكنى بها. المهم أن جواز سفري المؤقت، يعمل مثل أي جواز سفر آخر، وحصلت بموجبه على تأشيرة دخول إلى بريطانيا من السفارة البريطانية في عمان.

أخرجت من حقيبتي بضع أوراق، تشرح أسباب زيارتي إلى بريطانيا، وتوضح أنني رُشحت من المجلس الثقافي البريطاني للمشاركة في التدريس في دورة تدريبية لمعلمي اللغة الإنكليزية المحكية. قلَّبَ موظف المطار بوجه يكاد يخلو من التعبير الأوراق أمامه. دقق في صورتي على جواز سفري وتطلع في سحنتي وعيناه في عيني ثم سأل بصوت بلا أي تعبير: "كم تنوين البقاء في بريطانيا؟" قلت بصوت حاولت أن أجعله واثقاً: "أنا مدعوة للمشاركة كمحاضر في دورة تدريبية تستغرق ثمانية أسابيع رشحت لها من قبل المجلس البريطاني في عمان." صمت لحظة وعاد يسأل: "أين ستقيمين ما عنوانك؟" أسرعت أقول: "كل التفاصيل أمامك في أوراقي، سأقيم في فندق صغير، "سرير وفطور،" كما تسمونه، في شارع تتوتنهام كورت رود." لاحت ابتسامة على وجه الرجل وعاد ينظر في الأوراق أمامه. أحسست أنني أجبت على أسئلته كما يفترض أن أجيب. فالأوراق التي قدمتها له توضح كل أسباب مجيئي إلى بريطانيا، ومكان عملي وإقامتي. وقفت صامتة أستمع لدقات قلبي. أرعبتني فكرة أن لا يسمح لي موظف المطار بالدخول إلى بريطانيا. فهناك جملة ضمن دمغة الفيزا التي على جواز سفري تقول، إن السماح بالدخول إلى الأراضي البريطانية متروك لقرار موظف الهجرة في المطار.

رفع الرجل عينيه عن الأوراق أمامه وهو ممسك بيده دمغة رفعها وهوى بها على جواز سفري على الصفحة التي تحمل تأشيرة الدخول وهو يقول: "ثلاثة أشهر. تستطيعين البقاء في المملكة المتحدة لمدة لا تتجاوز الثلاثة أشهر، بعدها عليك أن تمددي إقامتك إن كان لديك سبب مقنع لتواجدك في المملكة المتحدة." أعاد لي جواز سفري والأوراق التي قدمتها له مرفقة بورقة صغيرة أخرى وهو يقول: "هذا عنوان مكان تسجيل إقامة الغرباء، إذا احتجت لتمديد إقامتك." شكرته.

سرت مبتعدة وانا أدقق في الورقة التي أعطاني إياها. كلمة الغرباء المستعملة على الورقة والتي رددها، تستعمل حسب علمي في اللغة الإنكليزية، لوصف المخلوقات التي تأتي من الفضاء الخارجي. وقد حاول بعض المثقفين العرب قبل سنين، اشتقاقها إلى العربية فاستعملوا تعبير "الألينة" بمعنى الإغتراب عن المجتمع. تساءلت، هل معنى استعمال تعبير كهذا أن أمثالي حين يفدون إلى بريطانيا يُنظر إليهم على أنهم قادمون من فضاء خارجي، يسميه الإنجليز تأدباً "ما وراء البحار؟" الا تعني لهم شيئاً الأوراق الكثيرة التي قدمتها لمسؤول الجوازات، والتي تثبت أنني قادمة من عالم أرضي حقيقي؟ وماذا عن جواز السفر "البازابورط" كما كانت تقول جدتي، الا يثبت أنني من مخلوقات هذه الأرض؟ ابتسمت. هم أحرار في

الطريقة التي يوظفون فيها لغتهم، وهذه المدينة هي عاصمة مملكتهم المتحدة كما يسمونها، و"بلاد الإنكليز" كما يقول عنها الفلسطينيون. تذكرت ما قاله لي أبي حين سألته لم تسمون بريطانيا بلاد الإنكليز؟ فكر لحظة وهمهم: "لأنها بلادهم مش بلادنا." أعجبني رده، ورأيت فيه محاولة لإبعاد الذات عن الإنكليز وبلدهم "بريطانيا العظمى" التي كانت فلسطين تحت انتداب ملِكها بعد الحرب العالمية الأولى ومنحت وعداً بإقامة وطن في فلسطين لمن جاؤا من أنحاء مختلفة من العالم، وبررت ذلك بأنها تمنح أرضاً بلا شعب لشعب بلا أرض، أي بكل بساطة أنكرت وجود الفلسطينيين.

عدت أسير في ممرات جديدة أتتبع إشارات جديدة، الحقائب والخروج. التقطت حقيبة ملابسي، وعدت أتتبع الإشارات، قطارات الأنفاق، خط البيكاديللي. نعم هذا هو ما أريده. هو أطول خطوط القطارات الأرضية في لندن، يصل مطار هيثرو بوسط المدينة. كان لدي معلومات مفصلة عن لندن قدمتها لي مديرة الوحدة التي أعمل فيها في المجلس البريطاني، المس ماسينغ، سيدة إنكليزية في خمسينيات عمرها عملت معها لسنين وقامت بيننا صداقة ومودة. هيلين ماسينغ، لندنية أصيلة ولدت ونشأت في شرق لندن على ضفاف نهر التيمز، في منطقة ارتبطت بالطبقة العاملة وبلهجة لندن القديمة "الكوكني"، وفخورة جداً بأصولها وبأن والدها كان يمتلك دكاناً صغيراً في الحي، تماماً كوالد المسز ثاتشر التي أصبحت أشهر امرأة في العالم.

كانت تحاول دائماً أن تركز على نقطة مهمة في تعليم اللغة الإنكليزية هي أن من يتعلمونها من غير الناطقين بها، ينطقون حروفها بشكل صحيح رغم لكنة لغتهم الأصلية، أما لهجة شرق لندن "الكوكني"، فلا يجيدها الغرباء، لأنها لهجة يتعلمها من ينطقون بها منذ الطفولة ولا تلتزم بقوانين النطق المتعارف عليها في اللغة الإنكليزية. فالعديد من الحروف لا تلفظ أو تستبدل بحروف أخرى. المشكلة أن طريقة نطق الإنكليزية في بريطانيا تدل على الطبقة الاجتماعية للفرد، لذلك حاول كثيرون التخلص من لهجة تنسبهم لما لا يعجبهم ليوحوا لمن حولهم أنهم من طبقة اجتماعية أكثر رقياً. كان ذلك قبل أن ينشأ في شرق لندن، حي المال والأعمال أو ما يعرف بـ "السيتي"، أو الميل المربع الذهبي الذي يضم أهم الشركات والمؤسسات المالية. اليوم لم يعد الموضوع مهماً فاللهجة اللندنية أصبحت مقبولة في مختلف مجالات العمل.

دخلت عربة القطار، وضعت حقيبتي في المكان المخصص للحقائب وجلست في مقعد أستطيع منه مراقبتها. أدرت وجهي بحذر في الوجوه حولي، لأن البحلقة في الآخرين أمر غير مقبول، سواء كان من باب الفضول

أو الإعجاب، لأنهم يعتبرونها تدخلاً في الشأن الخاص. المس ماسينغ كان لها رأي آخر، فهي تعجبها البحلقة لأنها تشعرها بوجودها. تضاحكت مرة وهي تقول: "بصراحة، أنا الآن في أواخر الخمسين من عمري، أي أنني لم أعد شابة ولست على قسط من الجمال مثلك يا سهام، ولكن حين ينظر إليَّ الناس ويبحلقون قليلاً، أشعر أنهم يضيفون عليَّ مسحة من جمال خفي وشيئاً من الشباب، خاصة حين يكون في نظراتهم ما يشعرني أنني أثير الاهتمام."

درت بعيني من جديد في من حولي محاذرة أن لا أبحلق في أحد. كان الكل منشغلاً بالقراءة. فمعظم الوجوه تحجبها الصحف المفتوحة أمامها، منها ما هو كبير الحجم يتطلب تقليب صفحاتها مهارة وخبرة في طي الصحيفة وفرده أجزائها المطوية تباعاً بحيث لا تزحف على وجه الشخص الجالس بجانبك، وهناك الأصغر حجماً التي يسميها البريطانيون "تابلويد." بعض الركاب فضلوا قراءة كتب صغيرة سميكة، روايات حديثة الصدور لكُتاب لم أسمع بهم، لكنهم، رغم ذلك، أصحاب الروايات الأكثر مبيعاً، كما يقول غلاف الكتاب. المهم أن الجميع يقرأ. وجدت نفسي أتساءل أهو مجرد حب القراءة أم رغبة في خلق حاجز يحميك ممن حولك؟ وجدتني أتساءل أهاذا هو سر عدم إجادة الإنكليز لفن البحلقة؟

توقف القطار عند محطة توتنهام كورت رود. حملت حقيبتي وسرت باتجاه الفندق الذي يبعد بضع دقائق عن محطة قطارات الأنفاق. وجدت نفسي بعد مسيرة بضع دقائق، في غرفة صغيرة بحمام، طولها لا يتجاوز طول السرير وخزانة الملابس ذات الدرفتين التي تواجهه، وعرضها بعرض السرير والطاولة الصغيرة الملتصقة به. بعد حمام دافئ، استلقيت على السرير النظيف بعد يوم طويل متعب. بدا كل ما حولي مقبولاً لطيفاً. استوعبت كل التفاصيل. أغلقت عينيي ونمت ليلتي الأولى في لندن.

كانت الدورة التدريبية فرصة لأتعرف على أساتذة مثلي يمارسون نفس مهنتي في جامعة لندن، وطلاب جاءوا من كل قارات العالم لحضور الدورة. أمضينا الأسبوع الأول في إعداد تفاصيل الدورة وتوزيع الحصص والأدوار. وجدت نفسي مستمتعة بالعمل مع فريق المحاضرين والمشرفين، أتعلم وأكتشف الجديد. بعد أيام، بدأت أتعرف على المنطقة المحيطة ببنايات الجامعة، وما تضمه من محال تجارية، في ساعة الغداء. لاحظت أن من يتجولون في شارع توتنهام كورت رود، يدخلون المحلات التجارية الفخمة على جانبيه. في البداية تهيبت من الدخول إلى أي من هذه المحلات الكبيرة الفخمة، لأنني لا أريد أن أشتري شيئاً من معروضاتها. مع الأيام، أكتشفت أن دخول المحلات للتفرج على البضاعة ولمسها وتفحصها دون شراء شيء أمرٌ عادي جداً في لندن. بل هناك تعبير إنكليزي يتحدث عن شكل من أشكال التسوق اسمه، التسوق عبر الواجهة الزجاجية، Window Shopping أي ببساطة، الفرجة دون شراء. تشجعت ودخلت محل بيع الأثاث الفخم. وجدت الناس يتجولون فيه بحرية ويجلسون على قطع الاثاث ويستلقون على الأسرة. صرت أدخل المحلات التجارية، وأتفرج، كجزء من اعتيادي الحياة اللندنية، وتطبيقاً للمثل الإنكليزي الشهير،"حين تكون في روما، إفعل ما يفعله أهلها."

في يوم وقفت أمام واجهة محل ضخم لبيع الكتب، يشغل عدة طوابق في بناية عليها لافتة كبيرة تحمل اسمه، فويلز، ويعلن عن تنزيلات في أسعار الكتب على واجهته الزجاجية الكبيرة بطريقة مغرية. تشجعت وقررت أن أدخل علّني أجد كتاباً ممتعاً لقراءة ما قبل النوم. أذهلتني رفوف الكتب من كل صنف ولون، في الآداب والعلوم والفنون والطبخ والرياضة وروايات كلاسيكية وحديثة ودراسات في كل المعارف والتاريخ والسياسة. وقفت مشدوهة أمام مجموعة من الرفوف الممتدة في عمق المحل الكبير، تحمل عنوان "الإصدارات الجديدة". درت بعيني بين عنوانيها وأنا أتساءل، كيف يمكن لأي قارئ مهما كان نهماً، أن يقرأ كل هذا الجديد، ويواكب ما سيتبعه من جديد قادم؟ تجولت في المحل، ثم توقفت عند مجموعة الكتب المعروضة بسعر مخفض ضمن "الأوكازيون الضخم للكتب" المعلن عنه خارج المحل.

تفحصت بعضها، تعلّم الشطرنج في ثلاثة أيام، تاريخ الطبخ في مقاطعة يوركشاير، قصة حياة نجم المصارعة الشهير. كانت كلها كتباً بأغلفة سميكة ملونة لامعة، صممت لجلب انتباه القارئ. تساءلت، لم انتهى بها المطاف معروضة للبيع بسعر يصل أحياناً إلى أقل من نصف سعرها الأصلي؟ ربما لم تلق ما كان متوقعاً لها من نجاح، لأن الناشر لم يحسن اختيار الموضوعات التي تستهوي القراء. جلب نظري كتاب

يحمل غلافه صورة لكتدرائية سانت بول الشهيرة وبعض معالم لندن، يحمل عنوان، "حريق لندن وعمارة السير كريستوفر رين". قرأت ما هو مكتوب على الغلاف الخلفي.

"بدأ حريق لندن في الثاني من سبتمبر عام ألف وستمئة وستة وستين في مخبز في الحي الشرقي من لندن، واستمر لأربعة أيام متتالية أتى خلالها على مباني لندن التي تعود للعصر الوسيط، والتي كان يحيط بها السور الروماني، وكاد أن يهدد قصر الملك شارلز الثاني القريب من مبنى البرلمان. كما التهم أكثر من ثلاثة عشر ألف منزل وما يزيد عن ثمانين كنيسة، بضمنها المبنى القديم لكتدرائية سانت بول. وكان على المعماري المتميز السير كريستوفر رين أن يعيد إلى لندن بهاءها."

قلبت صفحات الكتاب الكبير المليء بالصور الفوتوغرافية والتخطيطات لمبان أنجزها السير كريستوفر رين، قبل أكثر من ثلاثة قرون، نصب حريق لندن، والكلية البحرية في منطقة غرينج في جنوب غرب لندن، وكتدرائية سانت بول الشهيرة في منطقة الستي في شرق لندن التي زرتها قبل أيام مع مجموعة من الطلاب والطالبات، الذين كانوا متحمسين لزيارتها لأنها الكتدرائية التي تم فيها زواج الأمير شارلز من الليدي ديانا سبنسر قبل سنين. انتبهت على صوت رجل يقول شيئاً. في البداية ظننته يكلم شخصاً آخر. اقترب الصوت مني، التفت نحوه. كان رجلاً طويلاً بعينين بنيتين كبيرتين، يوجه حديثه لي بصوت رائق، ويحاول أن يشرح لي أهمية المعماري الفذ الذي أعاد بناء لندن بعد حريقها الشهير، ويشجعني على شراء الكتاب الذي أحمله بيدي لأنه سيكون قراءة ممتعة. شكرته على ما قدم لي من معلومات في فن المعمار، فأوضح لي أنه أستاذ المعمار في جامعة لندن. حملت الكتاب الكبير إلى صندوق الدفع القريب من باب الخروج. دفعت ثمنه، واستلمته من البائع في كيس ورقي يحمل اسم المحل، فويلز. سرت خطوات نحو باب الخروج. كان الرجل الذي كلمني يقف أمام رفوف الكتب مخفضة الأسعار وقد استغرقته صفحات كتاب. فجأة رفع رأسه عن كتابه وابتسم. بادلته الابتسام.

بعد أيام، قررت أن أستكشف حديقة صغيرة تطل عليها جدارية ضخمة ملونة مرسومة على الجدار الخارجي للمبني المطل عليها، أثارت انتباهي وقررت أن أتفحصها عن قرب وأتناول وجبة غدائي عندها. دخلت الحديقة أحمل ما اشتريت من طعام. وقفت أمام الجدارية التي قرأت عنها في أرشيف المكتبة، أحاول استيعاب ما عليها من وجوه ورموز. بدت مبهرة عن قرب. درت بعيني أبحث عن مكان للجلوس. رأيت

مصطبة خشبية يجلس على أحد طرفيها رجل. مررت من أمامه وجلست على الطرف الآخر. التفت نحوي. التفت نحوه بحركة لا إرادية. كان نفس الرجل الذي تحدث إليَّ في محل بيع الكتب. بدا فرحاً وهو يرحب بي ويسألني عن الكتاب وهل وجدته ممتعاً. أحسست أنه لحوح بعض الشيء. وجدتني أسأله إن كان يتكلم العربية، فقد كان فيه بعضاً مما اعتدت في عالمي. تبين أنه فلسطيني من غزة عاش ودرس في القاهرة. انتهت استراحة الغداء وكان علينا أن نعود لعملنا. ودَّعني وهو يقول إنه يحب أن يلتقيني من جديد وإنه موجود كل يوم في مكتبة الجامعة بعد انتهاء ساعات العمل ويسعده أن يدعوني إلى فنجان قهوة لمزيد من التعارف وإكمال ما بدأنا من حديث.

مرت أيام، قبل أن أصعد السلم الكبير إلى المكتبة. جلسنا في مقهاه المفضل القريب من مبنى الجامعة. حكينا عن حياتنا والمدن التي عشنا فيها. حكى لي عن المخيم الذي ولد فيه، والقاهرة التي درس فيها وعمل وتزوج وأنجب إبنه وابنته. تضاحك وهو يقول: "لا أنكر أنني تزوجت المرأة التي كنت أظن أنني سأمضي عمري معها. لكن ذلك لم يحدث، انفصلنا رغم أننا لم نكره بعضنا أبداً، بس ما عرفنا نكمل حياتنا مع بعض لأننا بطلنا انشوف الأمور من نفس الزوايا." التمعت عيناه الكبيرتان وهو يقول إن ابنه سيلتحق بالجامعة السنة القادمة، وإن ابنته، التي تصغر شقيقها بعامين تريد أن تدرس في معهد السينما. سألني بشيء من الخجل إن كنت مرتبطة. أجبت بالنفي. بدا عليه الاستغراب.

وجدت الحديث معه سهلاً ممتعاً. حكيت له عن المدن التي عرفت، وكيف كانت بغداد نقلة في العيش من شقة في برج البراجنة الى بيت من طابقين وحديقة، في منطقة الداودي، فيه ثلاث غرف نوم، إحداها لي وحدي. لكن سنين العيش في بغداد، كانت سنين حروب متتابعة، بدأت بحرب سبعة وستين التي غيرت مصير فلسطين وأهلها. كنا في ذلك الصيف ننوي الذهاب إلى القدس لزيارة خالتي هبه بعد أن حصلنا على تصريح من السفارة الأردنية في بغداد. قال والدي إن كل شيء سيكون على ما يرام رغم إغلاق مضايق تيران وحالة الحرب غير المعلنة بين مصر وإسرائيل. ثم صحونا يوماً على صيحات وأناشيد النصر من الراديو الذي تستمع إليه والدتي طوال اليوم وتترك مؤشره على محطة "صوت العرب" من القاهرة. لعله كان نفس الصوت الذي سمعته جدة غريب، صوت هادر يعد بالعودة إلى عكا ويافا وصفد واللد والرملة، ويؤكد أننا أصبحنا على بعد خطوات من حدود فلسطين التاريخية. صاحت أمي بين دموعها: "عزا علينا انشالله. شو بدو يودينا عالقدس، خلينا انروح على عكا ونصيّف على شط البحر وخلي هبه تيجي معانا هي والدكتور

مازن والبنات". مع مرور الساعات، وتصاعد الأغاني الوطنية والوعود بالنصر المبين، زادت قناعتها بأنها ذاهبه إلى عكا لقضاء العطلة الصيفية.

بعد أيام تعد على أصابع اليد الواحدة، توقفت الأغاني الوطنية، والوعود بالعودة. انتهت الحرب بما أسموه "نكسة"، وظهرت الحقائق المرة، دخل الجيش الإسرائيلي كل مدن الضفة، واحتفل الإسرائيليون بدخولهم القدس الشرقية بالصلاة أمام حائط البراق الذي أصبح اسمه حائط المبكى، واحتل الجيش الإسرائيلي مرتفعات الجولان وشبه جزيرة سيناء وعسكر على الضفة الشرقية لقناة السويس. غرق الجميع في بحر من الحزن يخفي في طياته غضباً عارماً وتساؤلات بلا إجابات مقنعة. تنحى جمال عبد الناصر وعاد، وملأت الصحف والمجلات صور اللاجئين الفلسطينيين الجدد وهم يعبرون الجسر المتهدم على نهر الأردن، يحملون أطفالهم وأمهاتهم وجداتهم نحو مخيمات اللجوء الجديدة. غنَّت فيروز عن أجراس العودة التي ستقرع، ورددت أم كلثوم قصيدة نزار قباني عن البندقية التي أصبحت الآن في يد الفلسطيني، وغنى عبد الحليم حافظ كلمات عبد الرحمن الابنودي عن المسيح وعذابه في القدس الجريحة. وبين كل هذا وذاك، تجدد حزن النكبة، حزن كان مايزال حياً في قلوب من عرفوه وأورثوه لأولادهم.

ثم بدأت بعد سنين قليلة حرب أكتوبر. هلل الفلسطينيون لحرب حررت القناة وسيناء وستكمل بالجولان والضفة الغربية والقدس. بعد أيام، توقفت الحرب، وكان عليهم أن يفهموا الحقيقة رغم مرارتها. الحرب حققت المطلوب منها وتوقفت لأنه آن أوان السلام مع "العدو الصهيوني." كفَّ الفلسطينيون عن الشكوى وداروا يبحثون عن حلول. صارت حلولهم تطاردهم، طُردوا من الأردن ثم من لبنان بعد سنين الحرب الأهلية، حرب دمرت لبنان وشردت أهله وقتلت شبابه وتسببت في مجازر مروعة للفلسطينيين في مخيمات اللجوء. خرج الفلسطينيون من بيروت وعبروا مسارات قبل أن يعودوا لغزة لبناء دولة لم يحسنوا بناءها وسلام لم يثمر سوى الهزائم وخيبات الأمل.

أما الحرب التي مست تفاصيل حياتي اليومية، فكانت الحرب العراقية الإيرانية. عرفت لأول مرة معنى الغارات الجوية وسمعت أزيز الطائرات فوق البيوت. خبرت ألم توديع الشباب الذاهبين إلى جبهة القتال، ومرارة استقبال من عاد منهم في الصناديق الخشبية. كانت أخبار موت شباب في مثل سني، بعضهم من معارفي وزملاء الدراسة في الجامعة، أو أقارب الصديقات أو الجيران، تغرق الأيام بحزن لم أعرف له مثيلاً.

كان الموت حقيقة معاشة وليس مجرد خبر في صحيفة أو مجلة. حقيقة أراها في دموع الأمهات والشقيقات والحبيبات، وفهمت لأول مرة عمق الحزن الذي تجلبه الحروب حتى لو انتهت باحتفالات النصر.

في خضم كل ذلك، عرفت الحب لأول مرة، ومن أول نظرة، حباً ملأ حياتي ثم شلَّها حين مات حبيبي بعد أيام من عقد قراننا في حادث سيارة، وتركني أرملة في الثانية والعشرين من عمرها. كنت امرأة أحببت بكل ما تملك من قدرة على الحب، وحزنت بكل ما تجود به روحها من حزن. بقيت لسنين أجتر حزني، ولسنين تالية أحاول أن لا أكرر تجربتي مع الحب، وسنين بعدها أعتاد الاجترار ورفض الارتباط برجل آخر وأتجنب الحديث عن الحب. لم أستمع لكل أغاني الحب التي حفظها ورددها أبناء وبنات جيلي، أو أشاهد الأفلام التي تحكي حكاياته الشهيرة. سجنت روحي وفرضت عليها كل شروطي فأطاعت. وحين تجاوزت الثلاثين من عمري، أعلنت أنني لم أعد راغبة بالزواج أو البحث عن فارس الأحلام.

كنت مقتنعة تماماً أن فارس أحلامي مرَّ بي على حصانه الأبيض وطار بي في دنيا الأحلام ثم غاب هو وحصانه وأخذ معه كل ما منحني من حب وأحلام، ففقدت رغبتي بالفرسان والخيول البيضاء. رفضت كل من تقدموا لي وكررت جملة واحدة لم تتغير، لا أريد أن أتزوج، حتى ملَّ من سماعها كل من حولي. حاول أبي مراراً أن يقنعني بالقبول بعريس يراه مناسباً، لكنني رفضت. اعتذر مني وهو يبكي لأنه رفض الرجل الذي أحببت، قبلت يده وجبينه وقلت إني سامحته ولكنني فقدت الرغبة في الحب والزواج. أمي لم تعد تجد ما تقوله سوى على كيفك يا بنتي، وتتمتم مثلها عن العسل الذي لا يفسد مهما بقي في الجرار.

يوم جئت لندن، كان الحب آخر ما يشغل بالي، ثم وجدتني بلا مقدمات، أكسر كل قيودي وأخرج من سجني طائعة كما دخلته. سألت نفسي مراراً ما الذي يحدث لي؟ وجدت أنني راغبة بحدوثه فكففت عن السؤال. تركتني أفعل ما أريد لأنني كنت لأول مرة منذ سنين أريد ذاك الفرح الخفي حين أكون معه، والشوق الخجول حين أفتقده. عدت أسأل نفسي، كيف ومتى حدث هذا؟ تضاحكت مني نفسي وهي تقول بفرح تحاول أن تداريه، وهل هذا مهم؟ هل يعنيك حقاً أن تعرفي كيف ومتى؟ ربما يوم وقف يتحدث إليك في محل بيع الكتب، هل نسيتي كيف وقفت تستمعين لحديثه مستمتعة بما يقول وودعته بابتسامة؟ ألم تستغربي يومها تصرفك أنت التي لم تكن ترضى بذلك، وتصد كل من يحاول أن يتقرب منها، كيف وقفت مأخوذة بعينييه البنيتين الكبيرتين وصوته الهادئ. لا تنكري أنك فعلت ذلك وأنك أعجبت به واستلطفتي شكله وطريقة كلامه. وحين التقيته في المرة الثانية، سارعت بالسؤال إن كان يتكلم العربية، لأنك أردت أن يكون من

عالمك ورغبت بالتأكد من تلك الحقيقة المهمة بعد أن أحسست أنه مهتم بك. وحين دعاك لزيارته في المكتبة، لبيت الدعوة بمجرد أن سنحت لك الفرصة.

وجدتني أقر وأعترف أنني أعيش حباً غير ما بي واختزل الزمن ووضع نهاية لأسر ذاك الماضي البعيد، وأنني أريد أن أصونه وأحافظ عليه وأربط به قادم أيامي. مع اقتراب انتهاء الدورة التدريبية، قلت لنفسي لم لا أحكي له حكايتي وأرى تأثيرها عليه. تعثرت في البداية وأنا أبرر لم أنا عزباء رغم أنني تجاوزت الأربعين. همهم باسماً: "بعدك وردة مفتحة." كان في عينيه ذاك البريق الذي يمس القلب. رحت أحكي حكايتي، دون أن أخفي شيئاً أو أخجل من البوح بالتفاصيل الصغيرة. ملأني إحساس غريب وأنا أمرُّ على ما عشت من أحداث، أنني أعيش لحظة تطهير لروح أتعبها الصمت، فأنا لم أحكي حكايتي لأحد عبر كل تلك السنين، وأنا أتحدث عن ماض لم يعد يعنيني. كنت مثل فراشة تخرج من شرنقتها وتطير في عالم جديد. أنهيت حكايتي، تأملني صامتاً. كان في عينيه كلام لكنه لم يقله. تركته لصمته، وانتهت حكاياتي كما تنتهي حكايات الجدات، بدهشة السامع والتأمل فيما سمع.

في اليوم التالي، دعاني كعادته إلى مقهاه القريب من مبنى مكتبة الجامعة. رشف قطرات من الماء من كأسه وهمهم: "سهام، تذكرين أنني قلت لك مرة إني أفكر بالعودة لغزة بعد أن أصبح ذلك متاحاً بعودة منظمة التحرير إليها، لأعرض خبرتي على المسؤولين هناك علهم يتيحون لي أن أخدم فلسطين لأول مرة في حياتي، وإن عبد الواحد ومنى يريدان أن يرافقاني." همهمت أنني أذكر ذلك. سرح بعينيه في المكان وهو يقول بصوته الرائق: "بتعرفي يا سهام، لما انطلقت من مخيم جباليا شرارة الانتفاضة الأولى في آواخر سنة سبعة وثمانين، تمنيت يومها أن أعود طفلاً في ذلك البيت الصغير، بيت عطا الله البنا لأخرج مع الأطفال إلى الشارع وأحدِّف حجارة على جنود الاحتلال. كنت أيامها في لندن مطلّق وأستعد لمناقشة أطروحة الدكتوراه. اليوم عندي دكتوراه في هندسة المدن وباسابورت إنكليزي من الملكة ذات نفسها، فلم لا أعود لبلدي؟ إذا كان ياسر عرفات، رجع وقعد في "المنتدى" في غزة لماذا لا أعود أنا إللي مولود فيها؟"

أحسست بقلبي يذوب بين ضلوعي. هل يودعني؟ هو ذاهب لغزة وأنا سأعود لعمان. كانت عيناه تلاحقاني. عاد يقول: "لم الشمل، يتطلب أن أقدم طلباً لمنظمة التحرير الفلسطينية، بعد ما صار عندها وزارات ومجلس تشريعي، أطلب فيه أن أعود إلى غزة إلى بيت أبي. صحيح أن أبي توفي من سنتين، لكن الأسرة ما زالت موجودة تعيش في نفس البيت. رب الأسرة الآن هو شقيقي علي، الذي أصلح الدار ويعيش

فيها مع أمي وزوجته وأولاده، وشقيقي عدنان يعيش مع زوجته وابنه في الملحق الذي عاش فيه جدي وجدتي بعد ترميمه وتوسيعه. يعني مازال لي بيت وأسرة هناك في مخيم جباليا بعد غيبة ثمان وعشرين سنة وبدي أرجعلهم يا سهام." فجأة أمسك بكلتا يدي وهمس: "سهام، هل تقبلين أن تشاركيني عودتي؟" تسارعت دقات قلبي. كان يجلس أمامي ممسكاً بيديَّ يتأملني باسماً وقد أحنى رأسه على كتفه. حاولت أن أقول شيئاً لكنني لم أجد الكلمات. قرَّب وجهه مني وهمس: "تعالي معي يا سهام أنا محتاج لوجودك معي، محتاج لكلامك، لضحكتك، لحكاياتك، لدفا إديكي ولمعة عينيكي لكل شيء فيكي، عشان أنا يا سهام بحبك كأني ما حبيت طول عمري." صمت لحظة وعاد يقول: "الله شو حلوه هذه الكلمة، بحبك. صارلي سنين ما قلتها. بدي أقولها كمان مرة، بحبك يا سهام بحبك بحبك."

وجدت نفسي ابتسم ويدي بين يديه. أنا أيضاً لم أسمع هذه الكلمة منذ سنين. مر زمن طويل مذ قال لي رجل إنه يحبني. تقدم لخطبتي كثيرون ولكن لم يمسك أحدهم بيدي ويقول إنه يحبني. كلهم أرادوا أن يتزوجوا، ووجدوني مناسبة لهم، لكنهم لم يتقربوا مني أو يقولوا إنهم يحبونني. كانوا مجرد أشخاص ألتقيهم في أوساط العائلة، نتكلم ونبتسم ونتبادل التحايا، ثم تأتي أمي في اليوم التالي لتقول لي إن فلاناً يريد أن يتقدم لخطبتي. فأقول بكل بساطة إنني لا أريد أن أتزوج. الآن في هذه اللحظة هناك رجل يجلس أمامي ممسكاً بكلتا يدي، ينظر في عمق عيني ويهمس كلمات حب صادقة، ويعرض علي أن أشاركه أهم مغامرات حياته، العودة للجذور بعد غياب طال. رجل أرتاح معه وأحكي له دواخلي. تنهد بعمق وقبل يديَّ بالتناوب وهو يهمس: "قولي شيئاً يا سهام لا تسكتي. قولي إنك بتحبيني. أنا شايف حب بعيونك. قولي يا سهام حرام عليكي قلبي وجعني." همهمت باسمة: "سلامة قلبك يا غريب. بس أنا عم بفكر في مشكلة، أنا ما عندي باسبورت من الملكة ذات نفسها زيك، أنا عندي جواز سفر أردني مؤقت يعني بدون رقم وطني يعني مثل ما تقول نوع من وثيقة السفر للاجئين الفلسطينيين ولا أظن أنه يدخلني غزة." تشبث بيدي وتلاحقت أنفاسه. أغمض عينيه وهو يقول بصوت متهدج: "الله عليكي يا سهام. الله عليكي يا حبيبتي يا أحلى من الحلا. ملعون أبو الباسبورتات كلها. يعني موافقة وبتحبيني؟" تضاحكت: "أيوه يا غريب." صاح: "أيوه شو؟" تضاحكت: "أيوه بحبك. بحبك يا غريب. بحبك كثير."

كنت أحاول جاهدة أن لا أبكي. قام من مكانه. دار حول الطاولة الصغيرة وهو مازال ممسكاً بيدي ووقف أمامي. قمت من جلستي وارتميت في حضنه. أحسست به يرتجف وهو يضمني ويهمس: "حبيبتي، حبيبة عمري كله يا سهام."

وجدتني أطلق صفة الحب على كل ما يرتبط بغريب، لمسته الحانية، رائحته حين يضمني إلى صدره، قبلاته وهمسه. أعترف أنني استعذبت قبلته الأولى وقبلته مرات لأطمئن نفسي. بعد انتهاء الدورة التدريبية، كان علينا أن نتزوج كي أحصل على إقامة في بريطانيا كزوجة مواطن بريطاني، بعد أن تنتهي إقامة الثلاثة أشهر التي مُنحت لي في المطار. وكان عليَّ قبل كل شيء، أن أخبر أهلي الخبر الذي لا شك يفرحهم بعد أن طال انتظارهم له، سأتزوج. أنا سهام سأتزوج. كلمتهم بالتليفون. لا لأستأذنهم بل أعلمهم بقراري. جاء صوت أمي يرتعش بفرحة يصعب وصفها: "شو يمه شوقلتي يا سهام؟" عدت أكرر لها الخبر، إنني وافقت على "عريس فلسطيني تعرفت عليه في لندن." تهدج صوتها: "رح تتجوزيه يا سهام؟" همهمت: "آه يمه." بكى أبي وهو يقول: "تعالوا تزوجوا عندنا يابا سهام بدنا نفرح فيكي." شرحت له تعقيدات الإقامة والسفر، وإننا سنأتي إلى عمان بعد أسبوعين أو ثلاثة. خطفت أمي سماعة التلفون من أبي وبدأت تبارك من جديد وتسأل عن الاستعدادات المطلوبة. تضاحكت وأنا أقول لها إنه لن يكون هناك خطبة أو جاهة لأننا سنأتي إلى عمان كزوجين. صمتت لحظة ثم همهمت ضاحكة: "كل شيء بتعمليه يمه غير شكل عن الناس الله يوفقكوا يا حبيبتي هاتي العريس أسلم عليه."

طال الحديث على التلفون وانتهى بقرار من شقيقتي هيام أن تقام في عمان حفلة لعقد قراننا. همهمت وهي تغالب دموعها: "تزوجوا مدني بلندن وتعالوا انزوجكم مرة تانية على سنة ربنا ورسوله. بدنا نفرح فيكي يا سهام يا حبيبتي." طلب غريب إجازة تفرغ بدون راتب لمدة ستة شهور قابلة للتجديد، وكتبت أنا رسالة للمس ماسينج لمنحي إجازة لمدة شهر، قلت فيها إنني سأتزوج، وإنني سأستقيل من عملي حين أعود لعمان، وأرافق زوجي في رحلة قد تطول. بعثت لي ببطاقة تهنئة تحمل كلمات "يا لك من فتاة رائعة، كوني سعيدة." في عطلة نهاية الأسبوع دعتنا منى، التي بدأت صداقتي بها هي وعبد الواحد تزداد متانة كلما التقينا وتحدثنا، للغداء في بيتهم على أكلة مسخن.[8] جلسنا حول مائدة السفرة مع ابنتيهما وأمامنا طبق كبير عليه قطع الدجاج المشوي والخبز المغطى بالبصل المقلي مع السماق. بدأ عبد الواحد يملأ كاسات زجاجية صغيرة باللبن وهو يقول: "مسخن بدون لبن ما بيزبط أسألوا فلاح من طولكرم."

فجأة قام غريب من كرسيه وركع على الأرض أمامي. أخرج من جيبه علبة صغيرة، فيها خاتم ماسي وهو يقول: "سهام، هل تقبلين أن تتزوجيني". تجمد الجميع في أماكنهم وهم يرقبون المشهد. بدا كممثل يؤدي دوراً لا يحسن أداءه، لكنه مصر على الاستمرار به. درت بين الوجوه. كانت الصغيرتان تراقبان بدهشة.

[8] دجاج مشوي يقدم مع خبز التنور المغطى بالبصل المقلي والسماق.

منى تعلقت يدها في الهواء وهي تحمل قطعة من الدجاج لتضعها في أحد الأطباق، وتجمد عبد الواحد وهو يحمل في يده سطل اللبن.

عدت أنظر لغريب راكعاً أمامي وبيده علبة صغيرة في داخلها خاتم ماسي جميل. همست محاولة أن لا تفلت مني ضحكة: "طبعاً يا حبيبي طبعاً أقبل الزواج منك." أخرج الخاتم من العلبة، ووضعه في بنصري وقبَّل يدي. كان خاتماً بثلاثة أحجار من الماس. همهمت: "حلو كثير ومقاسه مضبوط. شكراً حبيبي." قام من أمامي، مس شفتي بشفتيه وعاد يجلس في كرسيه. صفقت البنات فرحات وهن يرددن بالإنكليزية عبارة ما أجمل ذلك، إنه طلب زواج رسمي. همهم عبد الواحد وهو مازال ممسكاً بسطل اللبن: "كيف طلعت معاك كل هالرومانتكية مع لحظة سكب المسخن واللبن؟ إنت يا بني آدم مش خطبتها ووافقت؟ شو بيسموه هاظ اللي عملتو؟" حاولت منى أن تكتم ضحكة أوشكت أن تفلت منها. وضع غريب فوطة المائدة على حجره وهو يقول بهدوئه المعهود موجهاً كلامه لعبد الواحد: "مهو الواحد صعب يفَهِّم إللي بدوش يفهم. يا بني آدم إفهم، أنجزت أمس معاملة عقد الزواج، وقررت أن أحتفل معاكم وألبس العروس شبكتها لأنها مش لابسة خاتم خطبة." التفت نحوي وهو يقول: "سنتزوج يوم الجمعة القادم في مكتب تسجيل العقود في منطقة كامدن تاون يا حبيبتي." صاحت منى: "ريته ألف مبرووك." عادت البنات يصفقن فرحات. تنحنح عبد الواحد وقد شعر بالحرج: "لا هيك العتب على المفهومية يا دكتور. معلش سامحني وحقك علي يا خوي. ألف مبروك يا دكتور. ألف مبروك يا سهام."

طلبت من منى أن ترافقني لشراء فستان يليق بالمناسبة. قلت ضاحكة: "ما جبتش معي فستان للعرس. مكنتش عارفة إني رح أتجوز." درنا بين محلات شارع أوكسفورد ستريت، أبحث عن فستان بسيط متميز يكون ثوب عرسي في لندن وفستان سهرة في عمان في الحفل الذي سيقيمونه أهلي هناك. بعد بضع دورات، أعجبني فستان قصير من الدانتيلا الوردي الفاتح وافقت عليه منى بشرط أن أشتري معه حذاءً بكعب. اشتريته مع كل مكملات الأناقة المطلوبة، واختارت هي فستاناً أبيض بورود حمراء كبيرة أظهر تناسق قوامها. تضاحكت وهي تقول: "عبد الواحد بحب المعرَّق، فلاح أصيل." تأملتها وهي تدور حول نفسها بفستانها أمام المرآة. الكبيرة في سلفريدجز. بدت جميلة بشعرها الأسود القصير وعينيها العسليتين التي تزيدهما بشرتها الحنطية جمالاً. أحسست أنها قريبة جداً مني رغم أننا تعارفنا منذ أسابيع قليلة، وأنني أحبها من كل قلبي، وأنها هي وعبد الواحد وابنتيهما، أهل غريب في لندن وسيكونون أهلي بعد أن صرت جزءاً من

حياتهم وتقبلوني وفرحوا بي. غريب قال لي إن عبد الواحد حين التقاني لأول مرة قال له: "والله وعرفت اتتقي يا ملعون."

عبد الواحد أيضاً عرف كيف يختار. منى إنسانة جميلة بكل معنى الكلمة، ولدت وتربت في رام الله في بيت جدها لأبيها في الحي القديم من المدينة، بيت كبير واسع بشبابيك وأبواب زرقاء، كانت في طفولتها تلهو في غرفه الرحبة ذات السقوف العالية والشبابيك التي تكاد تطال السقف. والدها عثمان الحج أحمد، درس الطب في الجامعة الأمريكية في بيروت في أربعينيات القرن الماضي. قلت لها إن زوج خالتي الدكتور مازن حماد، تخرج من نفس الجامعة بعد النكبة بسنتين. أسرعت تقول إن والدها من أوائل خريجي الجامعة الأمريكية في النصف الأول من الأربعينيات، وأنه عاد إلى رام الله بعد تخرجه، ليفتح عيادة ويمارس مهنته، ونال شهرة واسعة في المدينة الصغيرة وأحبه الناس. كانوا يلقبونه بالحكيم، هكذا دون حتى ذكر اسمه. أعجبه اللقب الذي كرمه به الناس.

في يوم جاءته شابة جميلة تشكو من وجع رأس حاد تصحبها سيدة مسنة. بهره جمالها، وحاول أن يعرف من تكون. قالت له السيدة المرافقة لها إنها إبنة أختها التي توفيت مؤخراً. وجاءت لتعيش معها في رام الله. كان اسمها سعاد. توفي والدها وهي طفلة صغيرة، وعاشت مع والدتها التي كانت تعاني من مرض عصبي عجز الأطباء عن معالجته وأدى إلى تدهور صحتها ووفاتها مؤخراً، وأن سعاد جاءت بعد رحيل أمها لتعيش مع خالتها في رام الله. بعد بضع جلسات علاج، تقدم لخطبتها. وافقت وتم الزواج في حفل بهيج شارك فيه أهل المدينة. منى هي البنت الوحيدة بعد صبيين، لذلك فرح بها أبوها فقد كان يحب البنات وكان يسميها "منى عيني". كان يحب أن يأخذها معه إلى عيادته حين يعود لمعاينة مرضاه في المساء. لم يكن يفعل ذلك مع شقيقيها. أسعدها أنه اصطفاها لتكون رفيقته. كانت تذهب إلى العيادة، وتجلس في غرفة الممرضة تراقب كل ما تفعله، من ضبط المواعيد إلى غرز الإبر في سواعد المرضى. حين رأتها تفعل ذلك لأول مرة سألتها: "ليش بتشكي إيديهم بالإبرة." تضاحكت الممرضة وهي تقول: "عشان أعطيهم الدواء الشافي يا منى يا حبيبتي."

منى تؤمن أن تلك الزيارات المتكررة لعيادة أبيها، جعلتها تحب مهنة التمريض وتختارها بتشجيع من أبيها الذي كان يؤمن أن ما ينقص الطب في المجتمعات العربية ليس الأطباء الإخصائيين، بل التمريض بمهنية عالية.

بعد حرب سبعة وستين، ومع دخول جيش الاحتلال إلى مدن الضفة الغربية، بدباباته وحواجزه وسجونه وقرارات الإبعاد التي كان يمارسها ضد الشباب الفلسطيني، فُرضت على حياة الناس متغيرات جديدة يمليها وجود المحتل. تغير الكثير مما اعتادوه كأسرة خاصة حين طلب والدها من شقيقها الأكبر الذي كان في السنة الثانية من دراسته الجامعية في الأردن، أن يكف عن زيارتهم في العطل والأعياد، وسعى لخروج الابن الأصغر من رام الله والالتحاق بشقيقه. وحين استقر بهما المقام في عمان، عاد يكرر طلبه بعدم عودتهما إلى رام الله إلا بعد إنهاء دراستهما الجامعية إن كانت الظروف مناسبة. صارت حياتهم موحشة بعد أن خلا البيت منهما، أمها تدور في غرف البيت تكرر سؤالاً واحداً، وين الولاد وإمتى رح يجيوا يزرونا؟ مع الأيام بات واضحاً أنها تعاني من حزن وكآبة مرضية بدأت تسلخها عن واقعها. كانت تضي ساعات يومها تدور في البيت الكبير وتقف أمام كل شباك تردد: "اليوم جايين أكيد. قالولي امبارح إنهم اليوم جايين. همه قالولي إنهم جايين اليوم."

حاول والدها بكل ما يمتلك من معرفة طبية وعلاج وأدوية، أن يخرجها من أزمتها النفسية، لكنها لم تستجب لأي علاج. قرر أن يعرضها على أطباء مختصين في مستشفى هداسا في القدس، فأكدوا له أنها مصابة بالملنكوليا، الكآبة المرضية، ووصفوا لها أدوية مضادة للكآبة وحبوباً مهدئة. صارت تقضي معظم وقتها تدور في غرف البيت تبحلق بكل ما حولها، ثم تدخل إلى غرفتها وتروح تكلم نفسها بصوت عال وتنادي على ولديها. كانت منى في السنة النهائية من دراستها الثانوية. قرر والدها أن يأخذ الأسرة إلى عمان ويلم شمل الأسرة، بمجرد ظهور نتائج الامتحان. نجحت منى بمعدل عال في الفرع العلمي. ذهبت لأمها وهي تقول فرحة: "نجحت يمه. خلص رح نروح لعمان عند اخواتي." ابتسمت أمها وطبطبت عليها وهي تهمهم كلمات غير مفهومة. عادت منى تخبرها بقرب رحيلهم إلى عمان. هزت رأسها موافقة ودخلت غرفتها وهي تقول إنها تريد أن تنام. بعد بضع ساعات، ذهبت منى تتفقدها، وجدت باب الغرفة موصداً بالمفتاح. نادت أباها. بدأ يطرق الباب برفق وينادي أمها. لم تستجيب. كسروا باب الغرفة ودخلوا. وجدوها نائمة في سريرها، وبيدها علبة الدواء المهدئ فارغة. حملوها إلى المستشفى، لكنها فارقت الحياة بعد ساعات.

بعد أيام، غادرت منى رام الله مع والدها وعمتها التي أصرت أن تكون معهم لتعتني بهم. اشترى والدها بيتاً في حي الجامعة والتحقت هي بكلية التمريض. حين أنهت دراستها، شجعها أبوها على دخول دورة في التمريض الجراحي في جامعة ميشيجان، حيث ذهب شقيقاها لإكمال دراستهما، وعادت بعد سنة لتعمل في مستشفى الخالدي في عمان الذي كان في وقتها، من أهم مستشفيات عمان، كمساعدة ثانية في غرفة

العمليات. في ذلك اليوم الذي أجرت فيه فحص الدم لعبد الواحد كانت تملأ مكان ممرضة غابت عن العمل بسبب وعكة صحية. همهمت ضاحكة: "يعني نصيبي كان إني أتزوج هذا الإنسان الجميل، عبد الواحد عبد المعطي عبد الرزاق، أظنه كان الجائزة التي فزت بها بعد ما عشت من متاعب." صمتت لحظة وعادت تقول: "الحمد لله جبنا بنات وإلا كان رح يكون عندنا ولد اسمه عبد المعطي عبد الواحد عبد المعطي."

جاء يوم الجمعة، الموعد المحدد لإبرام عقد الزواج في مكتب موثق العقود. كنا بمجموعنا ستة أشخاص، أنا وغريب، وعبد الواحد ومنى وابنتيهما الجميلتين زينة وياسمين، كل الحضور لحفل الزواج. عبد الواحد كان لا يستطيع إخفاء فرحته، ولا يتوقف عن الابتسام وتقبيل بناته. سأله غريب هل أحضر خاتمي الزواج؟ غمز له باسماً ومس جيب سترته العلوي. منى جاءت تحمل باقة من البنفسج، زهوري المفضلة. بدت جميلة في فستانها المشجر وحولها ابنتيها. قالت وهي تضع باقة البنفسج في يدي: "إحمليها يا سهام، العروس لازم يكون معها باقة ورد يا حبيبتي وإنتي بتحبي البنفسج." حملت باقتي ووقفنا أنا وغريب أمام موثقة العقود، وخلفنا الشاهدان عبد الواحد ومنى وحولنا زينة وياسمين. وضع غريب في بنصري الأيسر خاتم الزواج الذهبي ووضعت في بنصره خاتماً مشابهاً. تضاحكت مسجلة العقود: "يسعدني أن أعلن أنكما الآن زوجان. أتمنى لكما السعادة ويستطيع العريس الآن أن يقبل العروس."

بعد توقيع عقد الزواج بحضور الشاهدين، ذهبنا إلى مطعم أنيق حجز فيه غريب طاولة دائرية قرب النافذة المطلة على بحيرة جميلة. جلسنا حول المائدة المنسقة. همست منى: "إلبسي خاتم الزواج مع الخاتم إللي لبسك إياه غريب يوم المسخن. حلوين مع بعض. هو اشتراهم من نفس المحل، طقم على رأيه هيك قاللي." أعجبني منظرهما معاً. شربنا الشامبانيا وسط تهاني من حولنا من زبائن رفعوا كؤوسهم مهنئين العروس والعريس. أكلنا وضحكنا، ثم حملت باقة البنفسج وذهبت مع غريب في سيارة تاكسي إلى شقته في كامدن تاون. وضعت باقتي في كوب ماء كبير وجلست بقربه على الصوفا الجديدة. ضمني وقبلني. تركت نفسي له، امرأة في أوائل أربعينيات عمرها، تمارس الحب لأول مرة مع رجل تعرفت عليه قبل أيام في مدينة غريبة، واختارت أن تمنحه كل ما اختزنت من حب وشوق ورغبة.

انتقلت للعيش في شقة زوجي الذي أنام الليل ملئ جفوني في أحضانه، وأصحو لأشاركه الكثير مما تحلو مشاركته، وكأنني اعتدت ذلك على مدى ما فات من سنين عمري. لم أشعر للحظة بالغربة مذ أمضيت ليلتي الأولى في تلك الشقة الصغيرة. صحوت في صباح اليوم التالي، وكأني أصحو في المكان الذي اعتدت وألفت. وقفنا أنا وغريب في المطبخ نعد الفطور نضحك ونتبادل القبل. كانت شقة غريب رغم صغر حجمها، نظيفة مرتبة، تدخلها الشمس في الصباح من النافذة الكبيرة في غرفة الجلوس وتغيب عنها من شرفة المطبخ الصغيرة. أدهشني أنه لا يهتم فقط بنظافة المكان ويعتني بأثاثه وملابسه، بل يحسن طبخ العديد من الأطباق الغزاوية والإنكليزية. مع انتصاف النهار، قررنا أن نفعل شيئاً يليق بحقيقة أننا في أول يوم من أيام شهر العسل. ذهبنا إلى هامستيد هيث أحد أجمل حدائق لندن، سرنا بين ظلال الشجر الوارف، والطيور المغردة ثم خرجنا من الجانب القريب من الشارع العام ودخلنا إلى بيت صغير بسقف من القش ونوافذ خشبية بزجاج ملون عليه يافطة تقول، "ذي بوب" مبنى قديم يعود إلى القرن الماضي، كان في الأصل بيت الحارس لهذا الجزء من البارك الضخم وتحول قبل سنين كما أخبرني غريب، إلى مشرب ومطعم إنكليزي راق.

وجدت نفسي مستمتعة بإجازة لا أعرف متى تنتهي بعد أن أصبحت بلا عمل ولا أستطيع العودة إلى عمان قبل أن تنتهي معاملة الإقامة في بريطانيا كزوجة مواطن بريطاني. بعد أكثر من أسبوعين استلمت الأوراق الرسمية التي تسمح لي بالإقامة مع غريب في بريطانيا، وتسهل إلى حد كبير انتقالي معه إلى أي مكان يحق له السفر إليه كمواطن بريطاني. لكن دخول غزة كان أمراً مختلفاً بتطلب بعض الموافقات والتأشيرات الرسمية من منظمة التحرير والحكومة المصرية، للسماح لي كفلسطينية بجواز سفر أردني مؤقت بدخول "الأراضي الفلسطينية." بعد اتصالات مطولة مع بعض من يعرفهم غريب في غزة وفي القاهرة، قرر أن نذهب إلى القاهرة لنبدأ المعاملات الرسمية المطلوبة بتقديم طلب "لم الشمل" لغريب عطا الله وزوجته سهام محمد. بعدها نستطيع أن نغادر إلى عمان لكي أقدم غريب لأهلي وأنهي علاقتي بعملي في المركز الثقافي البريطاني، وأجمع بعض ما أحب من أشيائي.

كنت رغم شوقي لأبي وأمي وشقيقتي هيام وزوجها وأطفالها، أشعر بشيء من الارتباك، ترى كيف سيرى أهلي غريب؟ هل سيحبونه كما أحبه ويتقبلونه زوجاً لابنتهم؟ مع اقتراب موعد سفرنا للقاهرة، فقد هذا الموضوع أهميته، وشغل تفكيري موضوع آخر، اللقاء المرتقب بزوجة غريب السابقة سمية أم أولاده نور وناهد. ألح عليَّ السؤال، هل سيتقبلونني كزوجة أبيهم الثانية، أم سيرفضون وجودي. أرعبتني فكرة أنني صرت زوجة أب، هذه الشخصية التي تصورها حكايات الأطفال على أنها شريرة مستبدة ظالمة لا تحب أولاد

زوجها وتنغص عليهم حياتهم بما تفرضه من قيود وحرمان لأنها لا تريدهم في حياتها، تريد فقط زوجها الذي هو أبوهم. حاولت أن أبعد عني هذه المبالغات الرومانسية غير الواقعية، وأجد معادلة عقلانية ترضيني، مفادها أن سمية لها مكانتها في حياة غريب لأنها زوجته السابقة وأم نور وناهد، الأولاد الذين لن يكون هناك سواهم. وأنا لي مكانتي أيضاً كالزوجة الثانية التي اختارها غريب بعد سنين من الوحدة. معنى ذلك أن لكل واحدة منا مكانتها التي تميزها. غريب أكد لي أن سمية سيدة لطيفة محترمة تربطه بها علاقة إنسانية راقية جعلت تعاملهما مع بعض سهلاً ومريحاً على مدى السنين. لكن يظل السؤال المهم قائماً، هل ستقبل بوجودي؟

تمنيت أن أفاتح غريب بما يدور في رأسي من مخاوف، لكنني أحسست بالحرج من الخوض في مثل هذه الأمور. في إحدى الأماسي كنا نجلس في شرفة المطبخ نتناول وجبة عشاء خفيفة. تأملني لحظة وهمهم باسماً: "بعد يومين، ستزورين قاهرة المعز يا حبيبتي وتشوفي آثارها الجميلة ونيلها ومعالمها. سمية والأولاد متلهفون للقائك." أحسست بقلبي يهوي بين ضلوعي. أخذت نفساً عميقاً. أسرع يقول وكأنه قرأ ما يدور في رأسي: "سمية إنسانة متحضرة يا سهام، وتقدر تفهم أنني اخترتك لأنني أحبك وأحتاج لوجودك في حياتي. ونور وناهد يفرحهم أن يكون لي رفيقة أحبها بعد سنين الوحدة التي عشتها. عشان هيك، كلهم متشوقون للتعرف على الست التي اخترتها وتزوجتها." صمت لحظة وعاد يقول: "بتعرفي يا سهام، نور كان دائماً يقول لي إننا أنا وأمه من عالمين مختلفين وأظنه الآن سيدرك أنني وجدت من تنتمي لعالمي." تأملته بصمت. كانت هناك أسئلة كثيرة تتزاحم في رأسي. لكنني قررت أن أتركها لأيام قادمة ستكشف لي الكثير. همهمت باسمة: "وأنا متشوقة للقاء أسرتك يا غريب."

في ظهيرة يوم ربيعي مشمس، هبطت بنا الطائرة في القاهرة. ركبنا سيارة أجرة إلى فندق "النيل هيلتون" الذي اخترناه لإقامتنا لأنه في "وسط البلد" كما يقول المصريون ويتيح لنا التنقل بين الدوائر الرسمية، ويجاور المتحف المصري وله أجمل إطلالة على النيل. حين دخلنا غرفتنا، خرجت إلى الشرفة. رأيت النيل ينساب أمامي بكل أبهته وعظمته. ابتسمت له. للأنهار سحر غامض يفيض على المدن التي تحتضنها. وقف غريب خلفي. لف ذراعيه حولي. دفن وجهه في رقبتي وهمس: "أهلاً بك في مدينتي." ملأني إحساس أن كل شيء سيكون على ما يرام. اتصل غريب بسمية. سمعت صوتها المرحّب وضحكتها وهي تدعونا إلى العشاء في بيتها في مصر الجديدة. عادت الأسئلة تتزاحم في رأسي، عن اللقاء الأول بين الزوجة السابقة، أم الأولاد، والزوجة الثانية. تذكرت ما قرأته مرة عن مفهوم الحب، من أن القلب يتسع لأشكال منه، للحبيب

والأخ والأم والأب والأولاد والأصدقاء، ويستطيع أن يجمع بين كل تلك الأشكال من الحب في وقت واحد، وكأن فيه حجراً صغيرة لكل من نحب، نضع كل واحد في المكان المخصص له ونحب الجميع في نفس الوقت، ويكون لكل منهم مكان لا يملأه سواه. أنا الحبيبة والزوجة ولي مكاني في قلب غريب، مكان لي وحدي لا يشغله أحد سواي، وأولاده لهم مكانهم وكذلك سمية وأهله في غزة. مكاني هو ما يجب أن يعنيني، وأن يظل لي وحدي وليظل الآخرون في أمكنتهم فلهم ما لي من حق في حب غريب، وفي قلبه متسع لنا جميعاً.

أفرغنا حقائبنا، وخرجنا نتمشى في الشوارع المحيطة. عبرنا ميدان التحرير إلى شوارع وسط البلد طلعت حرب، الذي كان اسمه سليمان باشا سابقاً. بدأ غريب يمارس دور المرشد السياحي وهو يشرح لي عن عمارة يعقوبيان وعمارات المحلات التجارية التي كان لها ماض، أسماء كانت تتردد في روايات إحسان عبد القدوس حين كنت أدمنها في سنين الشباب، صيدناوي وشيكوريل. مررنا أمام محلات تجارية تتزاحم في فترينياتها الأحذية والحقائب والملابس من كل صنف ونوع. جلسنا في محل "غروبي" الشهير المقابل لتمثال طلعت حرب. حكى لي غريب وقد ملأه حزن حقيقي، عن أمجاد هذا المكان الذي كان مقهى لعلية القوم، وكانت جدرانه مكسوة بالمخمل الأحمر ويقدم أفضل قهوة وشاي معطر مع أنواع الحلويات الغربية: "كان الواحد يشرب أطيب فنجان قهوة ويأكل أطيب گاتوه." درت بعيني في المكان وحاولت أن أتخيل ماضيه الجميل بعد أن خسر كل ما كان فيه من مخمل ومقاعد وثيرة وحلويات.

في المساء أخذنا تاكسي من أمام الفندق إلى حي مصر الجديدة. وصلناها من شارع يحمل اسم صلاح سالم، أحد الضباط الأحرار في الثورة المصرية، رأيت قصر البارون الشهير على يميني. مبنى جميل يحمل خليطاً من الأساليب المعمارية من عصر الباروك ممزوجة بفنون معمار الشرق الأقصى. همهم غريب: "هذا هو قصر البارون، مهندس السكك الحديد الذي بنى مصر الجديدة." ضغط على يدي: "حبيبتي في عالمي الجميل. شوفيها بعدها حلوة زي زمان رغم تراكم المباني العالية واختفاء الكثير من المساحات الخضراء." ملأني شعور لذيذ بأنني في عالمه الذي عرفه حين كان شاباً يافعاً جاء من غزة ليتعلم. درت بوجهي نحوه. كان مستغرقاً يتابع من النافذة ويدي بيده. التفت نحوي وابتسم: "قربنا نوصل." أحسست بارتجافة في صدري. كررت لنفسي الحقيقة التي أعرفها، أنا حبيبته وزوجته ذاهبه معه للقاء زوجته الأولى وأم أولاده. ضغطت على يده الممسكة بيدي. همس محاذراً أن يسمعه السائق: "حبيبة قلبي."

استقبلتنا سمية بترحاب وبهجة. ضمتني وهي تقول ضاحكة: "أهلاً أهلاً يا سهام نورتي مصر." صاح غريب ضاحكاً: "مصر ولّلا مصر الجديدة بس؟" تعالى ضحكها: "الإتنين يا غريب. يا سلام أهلاً وسهلاً يا سهام نورت مصر كلها." لفظت اسمه بلدغة في حرف الراء. شكرتها وأنا أحاول أن ألتقط تفاصيلها الشكلية، سيدة في أوائل خمسينيات عمرها، فهي أكبر من غريب بأربع سنين كما قال لي. شعرها الطويل الكث المزدان بخيوط فضية مربوط عند أسفل رقبتها بمنديل أخضر وفستانها المنزلي المشجر يكشف عن قوام ممتلئ متناسق. لفت ذراعها حول كتفي وقربت وجهها الأسمر الباسم مني وهمست: "أهلاً إتفضلي يا سهام بيتك ومطرحك." جاء شاب ورِث طول قامة أبيه وعينيه البنيتين الواسعتين. لفه غريب بذراعيه. قبله واستدار نحوي وهو يقول بكثير من الفخر: "نور يا سهام نور إبني." مد نور يده مصافحاً وهو يردد عبارات الترحيب. ابتسمت وأنا أسترق النظر إلى فتاة سمراء حلوة التقاطيع تقف خلفه مبتسمة وقد ضمها غريب إلى صدره. مددت يدي نحوها وأنا أقول: "أهلاً يا ناهد." قبلتني: "أهلاً بحضرتك يا تانت سهام." أحسست أنني على وشك البكاء. غالبت دمعي وأنا أقول: "سعيدة جداً بلقائكم." لف غريب كتفي بذراعه وهو يقودني إلى داخل البيت: "اتفضلي يا سهام من هنا غرفة الجلوس."

جلسنا في غرفة واسعة لها شباك دائري كبير يطل على الشارع، تتوسطها كنبة بيضاء كبيرة عليها مساند بألوان مبهجة، وحولها مقاعد من الخشب التقليدي، "أرابيسك"، وعلى الجدران لوحات لوجوه ومناظر طبيعية مصرية. جلست على طرف الكنبة البيضاء حيث أشارت لي سمية وجلست هي قربي وبدأت تسألني عن استعداداتنا للسفر إلى غزة. قلت إنني أتمنى أن يتحقق ذلك لأنه سيتيح لي أن أزور فلسطين لأول مرة وهذا بحد ذاته حدث عظيم لا أعرف كيف سأتعامل معه. ابتسمت وهي تقول: "ما تحمليش هم حتحبيها وتحبك. الوطن ما فيش أجمل منه بيتحب." أحسست أنها قريبة مني. تأملتها بابتسامة، امرأة ذات جمال وخصوصية، تشبه كثيراً الصورة التي تخيلتها عنها. فأنا لم أرى صورة لها ضمن صور نور وناهد التي يضعها غريب على مكتبه وخجلت أن أسأل. دارت ناهد بصينية عليها أقداح الليمونادة. تعالى ضحك غريب ونور في الزاوية المقابلة. سمعت بائعاً متجولاً ينادي على بضاعته. شربت من قدح الليمونادة رشفة وهمست لسمية: "شكراً على دعوتك بيتك حلو ومريح وشرح يا سمية والليموناده كتير طيبة." همهمت كلمات الترحيب. وزع غريب أكياس الهدايا التي أحضرها معه من لندن. دارت الضحكات والقفشات. عدت أرشف من قدحي، واسترخيت في مقعدي. همهمت لنفسي. أنا لست بالتأكيد زوجة الأب الشريرة، أنا جزء من هذه الأسرة الجميلة لأننا كلنا نتشارك في حب إنسان يحسن الحب ويستحقه.

كان غريب سعيداً بوجودي معه في المدينة "الحنون"، كما يسميها. قدمني إلى النيل ونحن نتمشى على الكورنيش لأول مرة، أمسك بيدي وهو يقول ضاحكاً: "بص يا نيل هاي حبيبتي الحلوة سهام، عروستي إجت معاي عشان تسلم عليك." تضاحكت من تقليده غير المتقن للهجة المصرية. همس: "المهم إنتي وهو فهمتوا عليَّ." أخذني في جولات في زوايا القاهرة الفاطمية ودرنا في أماكن ارتبطت بحياته فيها، مقاه ودور سينما ومحلات تجارية. ذهبنا إلى مكان دار الأوبرا المصرية، المبنى الجميل الذي بناه الخديوي اسماعيل بمناسبة افتتاح قناة السويس. وقفنا أمام السور الذي كان يحيط بها، سور الأزبكية العتيد، نتأمل البناء الكونكريتي البشع، كراج من عدة طوابق للسيارات الذي حل محل المبنى الجميل العريق الذي شاهدنا نجوم الغناء يغنون فيه في أفلام زمان. همهم وهو يتمسك بالسور: "هذا السور يا سهام لعب دوراً مهماً في الحياة الثقافية المصرية. كان لسنين أفضل مكتبة للصحف والكتب في القاهرة. للأسف اختفى المبنى الجميل الذي كان بداخله، احترق بعد سنة واحدة من رحيل عبد الناصر وأصبح كما ترين." كنت أشعر أنه يتألم لكل جميل فقدته القاهرة، لكن الألم الذي يتراكم في لحظات، ينجلي تماماً حين تجتمع الأسرة في المساء، خاصة حين يكون الاجتماع في مكان يطل على النيل، لأن النيل كان يعيد إليه القاهرة التي عرف وأحب.

بعد بضعة أيام قضيناها في ترتيب معاملات السفر إلى غزة والتجول في القاهرة، والالتقاء بالأسرة، غادرنا إلى عمان. بكت أمي طويلاً وهي تضمني وتهمهم بين دموعها: "حبيبتي يا سهام يا أحلى عروس يمه". قبلت غريب وهي تقول بين دموعها: "أهلاً يا حبيبي ما شاء الله عليك ما أحلاك. الله يرضى عليك حبها ودللها والله يمه بتستاهل." قبَّل غريب يديها وهمهم: "على راسي يا خالتي." أبي بدا مبهوراً بالدكتور غريب عطا الله، لكنه لم يستطع أن يخفي استغرابه من الطريقة التي تم بها زواجنا في لندن بعد تعارف لم يدم لأكثر من بضعة أسابيع. همهم ضاحكاً وهو يضمني إلى صدره: "يبدو يا دكتور إنه إحنا عيلة اعتادت الزيجات المفاجئة التي لا تشبه ما تعارف عليه الناس. زواجكم كثير بيشبه زواج هبه خالة سهام، خلي عروستك تبقى تحكيلك الحكاية." تضاحك غريب: "حكتها وصرت عارف الدكتور مازن حماد." صاح أبي: "يعني عارف إنها تزوجت دكتور لا يعرفه أحد من الأسرة، وطلع إبن حلال مصفى زيك تمام. والله أهلين يا دكتور غريب." ابتسمت. كنت في طفولتي معجبة بخالتي هبه وبالدكتور مازن وبأنها تعرفت عليه قبل أن تعرفه الأسرة. لم يخطر لي على بال، أنني سأكرر ما فعلته وأختار عريساً لا تعرفه أسرتي، بل وأتفوق عليها فأتزوجه بعيداً عنهم ثم آتي به إليهم لأعرفهم عليه. انتبهت على صوت غريب يقول لأبي: "المهم يا عمي إنه في كلا الحكايتين، كسب الدكاتره أجمل عروستين."

حاولت أمي بكل ما تملك من وسائل أن تقنعني بإقامة حفل زفاف في أحد فنادق عمان، لكني رفضت بشدة. قلت إنني متزوجة منذ شهر، ولا أحتاج لمثل هذه الحفلات. شقيقتي هيام وزوجها محمد وحتى أولادهما قالوا إنهم يريدون أن يفرحوا بي ولا داع للزواج "السُكيتي". أصريت على موقفي، وتم الاتفاق على أن نكتفي بحفل عائلي. أبي قال إن المهم هو أن يتم عقد قراننا الشرعي. حاولت أن أقنعه أننا نملك عقد زواج حسب قوانين بريطانيا المدنية، عليه طوابع ودمغات من وزارة الخارجية البريطانية ليكون صالحاً للاستعمال خارج بريطانيا. أصر على رأيه. رجوته أن لا يتم نبش الماضي لأنه لم يعد يعنيني، ولا أريد أن أغرق في البحث عن أوراق رسمية وإشكالات قانونية أنا في غنى عنها. ضمني وهو يقول: "حبيبتي لازم تعرفي إننا أيضاً لا نريد نبش ذلك الماضي. لكن عقد القران الشرعي، سينفعكما في غزة وفي أي معاملة رسمية في الدول العربية." قبل رأسي وهمس: "بدي أفرح فيكي يابا."

كان أبي واثقاً أن الأمور ستتم دون أي تعقيد لأنه يملك كل أوراقي الرسمية، عقد زواجي والأوراق التي تثبت أنني أرملة، توفي زوجها في حادث سيارة، الأوراق التي كانت في السيارة يوم الحادث. بعد بحث وتدقيق تبين أن إبرام عقد الزواج الشرعي ضروري فعلاً لإتمام المعاملات الرسمية في الدوائر الحكومية وأن إبراز عقد زواج مدني بالإنكليزية، لن يكون مقبولاً من الجميع خاصة وأنني أحمل جواز سفر أردني يقول إنني مسلمة، ويجب أن يكون معي عقد زواج شرعي.

بعد بضعة أيام، وصلت خالتي هبه، جاءت من القدس مع بناتها لتبارك وتتعرف على عريسي "الدكتور الفلسطيني اللي اتعرفت عليه في لندن." تضاحكت وأنا أقول: "من شابه خالته ما ظلم." ضمتني وراحت تهدهدني وهي تقول: "يا أحلى العرايس يا حبيبة خالتك." بدأت الاستعدادات لحفل عقد القرآن. أصر الجميع، أمي وشقيقتي هيام وخالتي هبه وحتى بناتها على أن ارتدي فستان سهرة طويل. كان عليَّ أن أرضخ. اشتريت فستاناً بلون البنفسج من محل كبير في الصويفية، وأرغمت على الذهاب إلى الحلاق "ليهندم لي شعري" كما قالت شقيقتي هيام.

كان حفلاً ضم كل من نعرف في عمان، حتى المس ماسينغ التي جاءت تحمل سلة ورد كبيرة. امتلأ البيت بالمدعوين وسلال الورد. أحسست أنني أفتقد عبد الواحد ومنى، والبنات. كلموني من لندن فرحين مهنئين بحفل زواج ثان كما قالت ياسمين. طبعاً كان لابد من المنسف[9] وصينية الكنافة التي يتم إعدادها في البيت.

[9] لحم الخروف مع اللبن المجفف.

كما أصرت أمي على توزيع علب الملبس بتشجيع من خالتي هبة. بدا الكل سعيداً وتعالت الزغاريد التي أجاب عليها الجيران. غريب أدى دور العريس بمهارة وهو يمسك بيد الشيخ ويتزوجني من جديد. همست له: "آه لو يعرف الشيخ الحقيقة." حين عدنا تلك الليلة لفندقنا ضمني وهو يقول: "خلص اتزوجتك بكل اللغات وصرتي حلالي زلالي بكل القوانين والشرائع وحبيبتي بكل ما أملك من قلب وعقل وجنون."

عشنا في عمان أياماً من فوضى فيض العواطف والدموع، ذكرتني بصيف عام خمسة وستين، حين كان على أبي أن يغادر بيروت ليلتحق بعمله الجديد في العراق، وكانت خالتي هبه تستعد لمغادرة بيروت مع الدكتور مازن إلى القدس مع نهاية العام. بدت يومها جميلة كعادتها ببطن منتفخة بعض الشيء، كانت حاملاً في الشهر الخامس بابنتها البكر. كنت أنا منشغلة عن كل ما يدور حولي بحقيقة أن أبي سيسافر ويتركنا نعيش حياتنا بدونه. لم يعنني كثيراً أنه حصل على وظيفة مهمة، مدير حسابات مع مقاول فلسطيني يمتلك شركة ضخمة في بغداد، وسيحصل على راتب شهري يوفر لنا حياة أفضل. كنت مرعوبة من فكرة غيابه رغم أنه أكد لي أنه سيغيب لبضعة شهور، ويعود مع بداية العطلة الصيفية ليأخذنا للعيش معه في العراق. حاولت أن أتشاغل عن مخاوفي بقراءة كل ما وجدت من كتب عن العراق في مكتبة المدرسة، وحفظت الكثير من التفاصيل، موقعه الجغرافي وشكل خارطته ومساحته وعدد سكانه وأهم مدنه، وأنه بلد كبير تفصله عن لبنان أميال لا يستهان بها، وأن عاصمته بغداد، مدينة كبيرة مترامية الأطراف يقسمها نهر دجلة إلى شطرين، كرخ ورصافة.

قبل سفر أبي ببضع أسابيع، حدث ما غير حياتنا كأسرة، مرضت جدتي. زارها الطبيب ووصف لها بعض الأدوية. كنت واثقة أنه عارض سيزول وتعود لما عودتنا من نشاط. لكن حالتها الصحية بدأت تتدهور. لازمت الفراش. صارت تنام فيه وتأكل فيه وتستحم فيه. لم تعد تدير عالمها من المطبخ وتعد أطباقها اللذيذة. تخلَّت عن كل مهامها، حتى التسبيح والدعاء في الشرفة الصغيرة. صرت حين أعود من المدرسة، أجلس على الكرسي الصغير قرب فراشها أرقب ملامحها وهي نائمة. وحين تفتح عينيها، وتراني، تبتسم وتهمهم كلمات عن الدواء الذي يجعلها تنام كثيراً، ثم تعود لتغفو من جديد، فأخرج إلى الشرفة وأدعو أن يزول عنها المرض والألم، "إلاهي وأنت جاهي تشفي تيته وترجعها زي ما كانت بجاه حبيبك محمد." كلمات كررتها بحذافيرها من أدعيتها لمن تحب. كنت أكرر الدعاء كل يوم، لكنها لم تشفى. بدأ الحزن يتراكم في عيون أمي وخالتي. كنت أراهما تدوران حولها وفي عيونهما دمع مكتوم، فيتصاعد خوفي مما يحزنهما.

ثم كان يوم صحونا في الفجر على صوتها تنادي أمي وخالتي. تحلقنا حولها. كانت هيام تقف بجانبي ترتجف وهي تقول بصوت خافت:" شو في شو في؟ تيته مالها." حاولت أن أتماسك رغم ارتجاف قلبي. أمسكت بيدها والتصقت بها. همست أمي وهي تمسح رأسها بحنان: "سلامتك يمه سلامتك يا حبيبتي." دارت جدتي بعينيها في الوجوه حولها ببطء وهمهمت: "وين هبه؟" أسرع أبي يقول: "حكيت معاها بالتلفون، هي بالطريق مع الدكتور مازن." همست جدتي: "الله يرضى عليك يا محمد." حاولت أن تمد يدها نحونا أنا وهيام. أمسكنا بيدها. أحسست بها باردة مرتجفة. مسستها بشفتي. تمتمت: "حبيبات قلبي."

دق جرس الباب، دخلت خالتي هبه ملهوفة وركعت على الأرض قرب سرير جدتي. أمسك الدكتور مازن معصمها يتفحص نبضها، ثم وضع يدها برفق على السرير وابتعد. أحاطت بها أمي وخالتي. دارت بعينيها الذابلتين بينهما. تنفست بعمق وأرخت جفنيها. نشجت خالتي: "يمه، يمه يا حبيبتي." انتحبت أمي. غطى أبي وجهه بيديه وبدأ يبكي. ارتجف جسد هيام وهي تلتصق بي. ضمتني وسحبتني نحو أمي. أحطنا بها وبدأنا نبكي.

امتلأ البيت بالمعزين والكراسي والطاولات الصغيرة، التي أحضرها الجيران. رُصت الكراسي في غرفة الجلوس، لاستقبال المعزين من الرجال، وبالكاد اتسعت غرفة جدتي، لبكاء السيدات، وتحسرهن على غربة الفلسطيني التي تتضاعف حين يموت بعيداً عن بلده. جلست بينهن أبحث عن وجهها ورائحتها ورجع صوتها. أدركت أنه لم يبق لنا منها سوى حكاياتها ومفاتيحها.

أنتهت أيام العزاء وسافر أبي. صرت أنتظر رسائله التي تأتي كل بضعة أيام وأعد نفسي أن ألتزم بنصيحته التي تتكرر، تذكري أن فرصة الفلسطيني الوحيدة في الحياة بعد ضياع الوطن، هي أن يتعلم، لأن العلم هو الشيء الوحيد الذي لا يقدر أحد أن يسرقه منه. لم أنس تلك الجملة طوال حياتي. وحين حصلت على شهادة البكالوريوس من جامعة بغداد، همس لي: "الآن استعدتي بقعة من الأرض ستأخذيها معك أينما ذهبت ولن يقدر كائن من كان أن يسلبك إياها."

عدنا أنا وغريب من عمان إلى القاهرة لإكمال المعاملات الرسمية. استأجرنا شقة مفروشة فيها غرفتان للنوم وصالة كبيرة في حي الزمالك. كانت الفكرة أن الحياة في الفندق لن تكون مريحة وأن الشقة ستوفر بعض الحرية والاستقرار. أحضرت شركة مختصة لتنظيف المكان، خاصة المطبخ والحمام، واشتريت مناشف وأغطية أسرة جديدة. كانت شقة رحبة يطل شباك غرفة الجلوس فيها على مشهد بانورامي للنيل، أثاثها حديث ونظيف، لأن صاحبها يؤجرها فقط لأجانب أمثال غريب البريطاني. بعد بضعة أيام وصل عبد الواحد ومنى ليشاركانا السكن فيها. بدت منى قلقة لأنها تركت ابنتيها في لندن برعاية ابنة عمتها التي تعمل في المدرسة القريبة من بيتهم. همهمت: "البنات لازم يستمروا في مدارسهم وأنا رايحة غزة أستكشف وإن وجدت إمكانية للعمل والاستقرار، أعود للندن وأجيب البنات لما تبدى العطلة الصيفية بعد كام شهر."

صار غريب يخرج كل صباح مع عبد الواحد لمتابعة المعاملات الرسمية الضرورية لدخولنا نحن الأربعة إلى غزة. فوجئت بحجم معارفهما من شخصيات فلسطينية ومصرية متنفذة تستطيع تقديم المشورة والعون. تبرعت منى أن تكون دليلي السياحي فقد عاشت في القاهرة فترة قصيرة بعد زواجها بعبد الواحد حين قرر أن يعمل في مصر لفترة، لكن ما عرض عليه لم يكن مناسباً فقرر أن يجرب حظه في لندن. بالنسبة لي كانت تلك فرصتي لأتعرف على كل ما فاتني ولم أتمكن من مشاهدته في الأيام القليلة التي أمضيتها مع غريب في القاهرة قبل ذهابنا لعمان. قلت لمنى: "صاحبكم غريب ما وداني لا على الأهرام ولا قلعة صلاح الدين الأيوبي." صاحت ضاحكة: "يا عيب الشوم عليه. خلص بنروح انشوفهم بس ما تنسي أن القاهرة مدينة تضم كل تاريخ مصر من أيام الفراعنة حتى يومنا هذا، وإن سمح لنا الوقت سنمر على قرون من التاريخ." اقترحت أن نبدأ بجولات في المعالم التي ارتبطت بأذهاننا بما قرأنا من روايات وما شاهدنا من أفلام سينمائية مصرية، وافقت. مشينا في الحسين وجلسنا في مقاهيه وأكلنا الحمام المحشي بالفريك. شربنا القهوة في قهوة نجيب محفوظ في خان الخليلي واستمعنا للموسيقى وشاركنا في الغناء. ذهبنا إلى الموسكي السوق الشعبي ونحن نردد أغنية صباح من أيام الوحدة بين مصر وسوريا، من الموسكي لسوق الحميدية. زرنا السيدة زينب، أم هاشم ودعونا أن تكون رحلتنا إلى غزة مثمرة. ولم ننسى أن نزور الأهرامات وقلعة صلاح الدين.

أسعدنا أن نسمع في تجوالنا بعض الكلمات التي كانت تدور على السنة الممثلين في الأفلام المصرية القديمة، رغم المتغيرات الكثيرة في القاهرة في الثمانينيات والتسعينيات، فسائق سيارة الأجرة مازال يعرف بالأسطى وبواب العمارة بعم فلان، تماماً كما في أفلام فاتن حمامة وعماد حمدي. دخلنا المتحف المصري

العتيد وركبنا الترام إلى مصر الجديدة، وأمضينا ساعات في الفرجة على القاهرة الفاطمية. أخذنا دروساً في طبخ الملوخية على الطريقة المصرية والخرشوف المحشي من سمية، وحفظنا بعض الاسماء الضرورية للتبضع، فالبندورة قوطة، والخبز عيش، والحليب لبن. حين تذوقت سمية طعامنا صاحت: "إيه ده يا بنات ده انتو بقيتوا بنات بلد بصحيح."

كنا نعيش ليومنا، نروح ونجيء في انتظار أن تكتمل المعاملات القانونية كي نذهب إلى غزة. قلت يوماً لمنى: "نحن ذاهبون إلى أقصى جنوب فلسطين، هذا هو نواة الدولة الفلسطينية اللي طلعنا فيها من اتفاقية أوسلو، واللي بنحلم إننا نشارك في بنائها. تنهدت بعمق: "شعرة من جلد خنزير زي ما بيقولوا. بس إسرائيل إللي حكمت وتحكمت في قطاع غزة من بعد حرب سبعة وستين، والمفروض إنها تخلت عنه لأن اتفاقية أوسلو بتنص على انسحابها من القطاع وتحويل إدارة الحكومة المحلية إلى الفلسطينيين، لسه حاطة رجلها في القطاع، لسه عندها فيه مستوطنات تحت أمرة الجيش الإسرائيلي." همهمت: "كيف رضيوا أن تظل المستوطنات في غزة؟" هزت رأسها يميناً ويساراً: "بيقولوا إنه كل هذه التفاصيل ستحل مع ما يسمونه الحل النهائي." سرحت بعيني في النيل الممتد أمامي وعدت أقول: "فكرك يا منى رح تزبط معانا في غزة؟" ابتسمت: "قولي إن شاء الله يا سهام، قولي انشالله."

كان أمامنا خياران لدخول غزة، معبر رفح البري الذي افتتح بعد انسحاب الجيش الإسرائيلي من سيناء عام إثنين وثمانين، ضمن معاهدة السلام التي وقعها السادات مع إسرائيل، أو السفر بالطائرة إلى تل أبيب. أنا شخصياً كنت أفضل معبر رفح لكي أرى معالم صحراء سيناء التي قرأت وسمعت عنها الكثير على مدى سنين العمر. لكن معبر رفح كان تحت إدارة هيئة المطارات الإسرائيلية. والعبور منه يتطلب ما يسمى "التنسيق" مع الجهات الرسمية الإسرائيلية، خاصة لمن تحمل جواز سفر أردني مؤقت دون رقم وطني، وترافق زوجها البريطاني من أصل يافاوي غزاوي الذاهب ليلم شمله مع أهله في مخيم جباليا. استغربت فكرة أن يكون معبر بري تحت إدارة هيئة إدارة المطارات الإسرائيلية التي يوحي اسمها أنها تشرف على المطارات وليس على معبر بري. بقينا لأيام نناقش الفكرة ونستشير أصحاب الشأن والرأي أيهما أفضل، أن ندخل كأجانب من مطار اللد، أم نعبر براً من رفح؟ أخيراً بدا أن النصيحة الأكثر منطقية هي السفر بالطائرة إلى تل أبيب.

جاءت الموافقات لعبد الواحد ومنى بدخول غزة. بات من الواضح أن معاملتي أنا ستتأخر بسبب تعقيد موقفي. أقنع غريب عبد الواحد بضرورة سفره هو ومنى وهو يقول ضاحكاً: "يا أخي روح قبلنا وظبطلنا الأمور." سافر منى وعبد الواحد بالطائرة إلى مطار اللد في تل أبيب، وبقينا أنا وغريب في القاهرة ننتظر. بعد أيام بدت متثاقلة، اكتملت الأوراق الرسمية التي تسمح لي بالسفر. وجدت نفسي مع غريب على متن الطائرة المتجهة من مطار القاهرة الدولي إلى مطار اللد "بن غوريون" في تل أبيب كما أعلمنا قبطان الطائرة. الفلسطينيون لا يحبون أن يقولوا مطار بن غوريون، ويفضلون اسم مطار اللد. قال لي أحدهم في تبرير ذلك: "اعتبريه نوع من حماية الذاكرة الفلسطينية. بعدين المطار بمدينة اللد وكل مطار ينتسب إلى المدينة التي يقع فيها، خاصة عندما لا يكون هناك مطارات متعددة في نفس المدينة. هو ببساطة مطار اللد." يومها ملأني شعور أن الفلسطينيين يعرفون كل الأبواب التي يمكن أن تفتحها مفاتيحهم التي خبؤها لسنين.

التصقت بغريب وأنا أودع القاهرة من نافذة الطائرة. همس: "ساعة واحدة وبنكون في فلسطين." هبطت الطائرة في مطار بن غوريون الدولي. كان الجو كما تركناه في القاهرة، شتائياً مشمساً دافئاً. سرنا في ممرات قادتنا للوقوف أمام مجموعة من الشابات الصغيرات بعضهن دون العشرين، ببزات عسكرية، مجندات يتدربن على منح سمة الدخول لمن يزور "الوطن" الذي ولدن وكبرن فيه وسيحمينه لسنين. قلبت إحداهن، فتاة طويلة القامة بشعر أشقر مربوط على شكل ذيل الحصان في أعلى رأسها، جواز سفري والأوراق المرفقة به. تفحصت صورتي وانتقلت بعينيها نقلات سريعة بينها وبين وجهي وقالت بإنكليزية تفتقد الدقة الكاملة في القواعد اللغوية: "ما هو الغرض من زيارتك لإسرائيل؟" لفظت الراء غيناً ثقيلة. قلت إنني سأتوجه لزيارة الأهل في غزة مع زوجي البريطاني. بحلقت بي. تفحصت جواز سفر غريب البريطاني. بدا عليها شيء من القلق. فغزة تعني السلطة الفلسطينية وياسر عرفات. أسرع غريب يقول وهو يشير إلى جواز سفره الذي تحمله في يدها: "إنها زوجتي. اسمها موجود في جواز سفري في الصفحة الأخيرة من الجواز وعليه ختم رسمي." قلبت جواز سفره وكررت سؤالها عن سبب مجيئه إلى "إزغايَل". تنحنح وهو يقول بين الجد والهزل إنه ذاهب إلى عزة لزيارة الأهل، وأنا عروسه ويريد أن يعرّفني على عائلته. عادت تنظر إلي متفحصة. أحسست أنها تحاول فهم بعض تفاصيل حكايتنا. ولم أنا عروس في الثانية والأربعين من عمري. قررت أن أستعير بعضاً من هدوء غريب وأنا أقول ما معناه، أنني لا أملك جواز سفر بريطاني بعد، لكنني زوجة بريطاني ولدي إقامة فيها.

كنا فلسطينيين ينتظران إذناً بدخول فلسطين، من مجندة شابة، هاجر أهلها من مكان ما في العالم قبل بضع سنين إلى الأرض التي ولدت عليها وأكسبها ذلك حق العيش والتجول والعمل فيها. فهي تحمل شهادة جنسية تنسبها للمكان وتجعلها حسب القوانين المرعية، مواطنة إسرائيلية يقف أمامها اثنان من "الغرباء"، بنفس استعمال دائرة الهجرة البريطانية للكلمة. هي مواطنة إسرائيلية، أوكلت لها مهمة السماح أو عدمه، لمن يدخل الأرض التي ولدت عليها، خاصة من تكَّنوا باسمها القديم، فلسطين. تأملتها وهي تتفحص أوراقي. ترى هل تعرف أن قلبي يرتجف وأنا أنتظر الإذن منها بدخول الأرض التي حلمت طوال عمري بدخولها؟ هل تدرك أن هذه الأرض التي تقف وتعمل وتعيش وتحب وتأكل وتنام عليها، هي الأرض التي ارتبطت منذ إدراكي المبكر بمن أكون؟ هل تعرف أنني، رغم تراكم سنين العمر، لم أخطو عليها أو أشم هواءها أو أشرب ماءها أو أدور في شوارعها أو أكلم ناسها؟ هل يعنيها في شيء أن أبي وأمي وجدتي وجدي وجد جدي فعلوا ذلك حين كان أجدادها هي يعيشون في مكان ما من العالم؟ هل تشعر أن بي خوفاً أحاول أن أداريه وأنا أقف أمامها لأنها تملك ما يملكه الحاكم الآمر على الأرض التي تسميها "إزغايَل"، وتستطيع أن تمنعني من دخولها، لكنني أتظاهر باللامبالاة لأحرمها من اكتشاف خوفي والتشفي بي؟

تمعنت في تفاصيلها، ملابسها شعرها أظافر يديها. لا شك أنها مستمتعة بوقوفي أمامها في انتظار إعلان النتيجة. وعليه سأنتظر بكل ما أملك من هدوء. بعد دقائق بدت دهراً، أنهت الفتاة تقليبها للأوراق وجوازات السفر. وضعت دمغة على البطاقة التي تحمل المعلومات الخاصة بغريب، واتبعتها بدمغة على بطاقتي، وهي تقول إن هاتين البطاقتين تتيحان لنا التنقل في إسرائيل خلال المدة المنصوص عليها وعلينا أن نحملها معنا أينما ذهبنا. تفحصت بطاقتي، يحق لي أن أظل في "دولة إسرائيل" لمدة أسبوعين، أما غريب الذي يحمل جواز سفر بريطاني، فلديه إقامة لمدة شهر.

حملنا أوراقنا وسرنا باتجاه مكان استلام الحقائب. بدا كأي مطار عربي، ناس يتدافعون ويتصايحون حول الحقائب والعربات. همست لغريب: "أولاد العم بيشبهونا، لا هم متحضرون أكثر منا ولا شيء. الحال من بعضه". أمسك بيدي وهمهم: "إهدأي وخلينا نخرج من هذا المكان بسلام." حملنا حقائبنا وخرجنا. رأيت وجه عبد الواحد الباسم وهو يلوح لنا وبجانبه منى تحمل باقة بنفسج صغيرة. ضمتني وهي تقول فرحة: "الحمد لله على السلامة." قدمت لي باقة البنفسج. ملأ صدري عبيرها. انهمرت دموعي. همهمتُ: "رائحته مختلفة بنفسج فلسطيني". ضمتني من جديد. غالبت دمعي وأنا أقول: "نحن في فلسطين يا منى، في

فلسطين. لا أستطيع أن أصدق ذلك." هدهدتني وهي تقول باسمة: "مش بالضبط يعني تقريباً." اقترب مني عبد الواحد. لف ذراعه حول كتفي وهو يقول ضاحكاً: "وفري دموعك للقدس وطولكرم ورام الله وغزة." تضاحكت وأنا أمسح دموعي وأسير معه نحو باب الخروج. همست: "نحن في فلسطين يا عبد الواحد. كلها فلسطين، كلها فلسطين من هون لغزه." جلسنا في السيارة التي استلفها عبد الواحد من أحد أقربائه، لأجلِ غير مسمى، وتحمل رقماً يسمح لها بالتجول خارج مناطق السلطة الفلسطينية. كانت الخطة التي رسمها عبد الواحد ورتب كل تفاصيلها بدقة الخبير العارف، هي أن نقوم بجولة في المدن الفلسطينية، قبل دخول غزة، فالكل يحملون جوازات سفر بريطانية تتيح لهم التنقل، وأنا لدي تأشيرة لزيارة إسرائيل لمدة أسبوعين.

كنا جميعاً نتشاطر حقيقة أننا نعود لوطن طال غيابنا عنه، أنا على مدى سنين عمري كلها، وعبد الواحد بعد غيبة سنين الإبعاد والغربة، ومنى مذ غادرت مع أبيها بعد وفاة أمها، وغريب مذ ترك غزة ليلتحق بالجامعة في القاهرة. كان بنا جميعاً شوق للتعرف على الأرض التي ننتمي إليها. عبد الواحد كان يريد أن يأخذنا في جولة في الأماكن التي ارتبطت بذاكرة الأباء والأجداد، ويعرفنا على المدن التي تشكل هذه الذاكرة لمن عاشوا فيها سنين الطفولة والشباب المبكر. كانت خطته أن نقضي ليلة في القدس، وليلتين في عكا لنتعرف على مدن الجليل، وليلتين في رام الله، لنزور مدن الضفة. همهم ضاحكاً: "حجزت لكم فنادق في القدس وعكا أصحابها عرب. والمهم مش لازم نسمح لحدا أو لشيء إنه يخرب علينا هذه الرحلة. لازم ننبسط رغم كل ما قد لا يعجبنا. خسرانين وللا ربحانين مش مهم، اوعدوني اتظلوا اتقولوا لحالكو هذه فلسطين."

جلسنا في السيارة. أحسست أنني أعيش حلماً لا يشبه غيره من الأحلام. أنا في فلسطين، أدور بين مدنها وأنام في مدن اعتدت سماع أبي وأمي وجدتي يتحدثون عنها، وكأنها من مدن الأحلام. الآن ستصبح حقيقة واقعة وسأنام وأصحوا فيها وأرى وجوه ناسها وأسمع كلامهم. بعد رحلة على الطريق السريع عبرنا خلالها مدناً تحمل أسماء لم أسمع بها من قبل، وصلنا القدس. تركنا السيارة في كراج للسيارات وسرنا نحو أحد أهم وأشهر أبوبها، باب العامود، الذي جاء اسمه من عامود ضخم من الرخام الأسود كان يقف في الساحة الداخلية في زمن حكم الدولتين الرومانية والبيزنطية، ويتم بواسطته تحديد المسافة بين أي نقطة في المنطقة، وبين مدينة القدس. ولباب العامود اسم آخر، باب دمشق، لأن القوافل كانت تخرج منه في طريقها إلى دمشق. أخذت نفساً عميقاً، وهبطت الدرجات التي تؤدي إلى القدس. وجدت نفسي في سوق عامرة تموج بالحركة. همهم عبد الواحد: "كعك القدس لازم ضروري." كان بائع الكعك المقدسي المغطى بالسمسم يحمل صينية كبيرة عليها الكعك الطازج الذي يؤكل من الزعتر الملفوف في ورقة صغيرة. كان له طعم يختلف عن كل ما تذوقت من كعك طوال حياتي. تجولنا في شوارع القدس العتيقة كما تردد فيروز، سوقها المكتظ بالدكاكين الصغيرة التي تبيع كل شيء، من الطعام والملابس والتحفيات. دخلنا المسجد الأقصى. همهم غريب: "كم هو مبهر رغم بساطة معماره." درنا في مسجد قبة الصخرة وجلسنا في ظل أشجار الزيتون في الساحة الكبيرة. سرنا في طريق الآلام نحو كنيسة القيامة وتركنا شموعاً مضاءة فيها دعاء للسيدة العذراء. جلسنا في مطعم في الساحة القريبة وأكلنا ما يقدم من لحوم مشوية. أحسست أن لكل شيء طعم مختلف، طعم فلسطيني.

في اليوم التالي ذهبنا إلى عكا. بحثت فيها عن كل ما حكته لي جدتي عنها، جامع الجزار وسجنها العتيد وسورها الذي استعصى على الغزاة، "حتى نابليون بونابارت ما قدرش يدخلها،" كما كانت تظل تردد. وقف عبد الواحد على باب سجنها وهو يردد: "ومن سجن عكا طلعت جنازي، جمجوم وخالد وفؤاد حجازي. المندوب السامي ربك يجازي، يجعل حريمو عليه ينعونا." الدلعونا التي ترددت حين أعدم الثوار الثلاثة بعد سجنهم في سجن عكا. مشيت على سورها العتيد، وجلست على شط بحرها الهادر، وأكلت السمك الطازج.

حيفا التي تشبه حورية خرجت من البحر واستلقت على الشاطئ وتركت شعرها الطويل لموج البحر. فجبال حيفا تنحدر لتذوب في رمال شاطئها، وتمد يدها في أمواج البحر بدلال. زرنا الناصرة مدينة المسيح. سرنا في شوارعها التي تصعد وتهبط لتطل على كنائسها ومبانيها القديمة. اكتملت جولتنا في مدن الجليل

الأعلى. نمنا ليلتنا في عكا في فندق جميل قرب سورها. أغلقت عينيي بعد يوم طويل شاق. تنهدت بعمق وهمست لغريب: "نحن في عكا هل تصدق ذلك؟" ضمني وغفوت في مدينة جدتي. في اليوم التالي ذهبنا إلى يافا المدينة التي هاجرت منها أسرة غريب. بدا مذهولاً وهو يدور في شوارع مدينة لم يعرفها يوماً لكنه كان يتمنى أن يعرفها ويعيش فيها مثل أبيه وجده ويخبر دروبها. تسائل وهو يغالب دمعه، ترى أين كان بيت جده؟ ومن أي مكان في يافا غادر أبوه وأمه إلى غزة؟

في الصباح، بدأنا رحلتنا نحو طولكرم. راح عبد الواحد يحكى لي كيف فقدت أسرته أملاكها بعد وفاة والده، بعد أن ذهبت والدته للعيش مع ابنتها الكبرى في الخليل وظل البيت خالياً من أصحابه والأرض لا تزرع، وهو وارث الأرض والبيت مبعد بأمر من سلطة الاحتلال. بعد مدة، وُضعت الأرض والبيت وكل أملاك الأسرة غير المنقولة، تحت إدارة السلطات الإسرائيلية. همهم عبد الواحد بسخريته اللاذعة وهو يدور بالسيارة حول المنطقة: "بس ولا يهمكم، سأرفع قضية في المحاكم الإسرائيلية لاستعادتها. عندي كل الأوراق والكواشين ومحاكم إسرائيل عادلة زي ما بتعرفوا وما بترضى بظلم الفلسطيني." همهم غريب: "حبيبي يا عبد الواحد." عاد عبد الواحد يقول: "أما الأرض التي أبعدوني بسببها بعد ما لقيت فيها عين ماء، فبطلت موجودة على الخريطة. ضموها لمستوطنة إيناف، هذه اللي شايفينها من بعيد بعد ما اتوسعت لتشمل حتى كروم قرية عِنّاب." رغم ذلك أصر عبد الواحد على أن يدعونا لأكلة مسخن أصلية عند بعض أهالي القرية القريبة من أرضه. جلسنا في بساتين طولكرم وأكلنا الدجاج المسخن، وحاولنا أن لا نجعل الحزن يفسد حقيقة أننا في فلسطين كما أوصانا عبد الواحد في بداية جولتنا.

بعد الغداء، دار بنا عبد الواحد بالسيارة حول المدينة وهو يقول: "هل سمعتم بنور شمس؟" توقف أمام مدخل ضيق لما خمنت أنه مخيم للاجئين، وهو يقول: "هذا هو مخيم نور شمس، أحد أشهر مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في محافظة طولكرم." راح يحكي عن العاصفة الثلجية التي ضربت فلسطين في شتاء عام واحد وخمسين ودمرت مخيماً للاجئين في سهل جنزور قرب مدينة جنين مما أضطر وكالة الغوث إلى نقل سكان المخيم المنكوب ممن نزحوا إليه من قرى حيفا، إلى موقع كانت فيه قرية زراعية تابعة لبلدة عنبتا أُزيلت من الخارطة اسمها عين شمس، ظل اسمها حياً في ذاكرة السكان، فأطلقوه على المخيم. همهم عبد الواحد: "المهم إنه قرية عين شمس كانت قرية صغيرة جداً تعيش فيها عشر أسر من العمال الزراعيين، مع ذلك، لعبت دوراً مهما في الثورات الفلسطينية، هبة البراق وثورة عام ستة وثلاثين، لأن سلطات الانتداب البريطاني

أقامت قربها سجناً حمل اسمها، تحول مع الأيام إلى معتقل للثوار. بس أنا ما تخرجتش من هذا السجن أنا خريج سجن الجلمه والشوك إللي حواليه."

في طريقنا إلى رام الله اقترحت منى أن نزور سلفيت المدينة التي جاءت منها والدتها. أسرع عبد الواحد يقول: "صعب يا حبيبتي لأنه ممكن أتليّل قبل ما ندخل رام الله والمعابر ما بينحزر شو ممكن يكون فيها. إحكيلهم إنتي عن سلفيت، كوليلهم من وين جاي إسمها." اعتدلت منى في جلستها بجانبي في مقعد السيارة الخلفي وبدأت تشرح أن سل تعني سلة من القصب أو خرصان الزيتون ومازالت مستعملة في اللهجة الفلسطينية، أما فيت فالبعض يقول إنها تعني العنب، والبعض يصر على أنها تعني الخبز. وعليه يصبح معنى سلفيت، إما سل العنب، أو سل الخبز وفي الحالتين سلفيت تعني المكان وافر العطاء. لكن سل العنب أكثر منطقية لأن سلفيت أرض الينابيع والكروم. صاح غريب وهو يقول ضاحكاً: "إسم الله عليكي يا أحلى مرشدة سياحية."

كانت رحلة لا تنسى حول فلسطين. وجدت نفسي كلما دخلت مدينة فلسطينية، أتأمل جمال طبيعتها التي تتنوع بين الجبال والحقول وساحل البحر وأقول لنفسي ما أجمل هذه الأرض، وما أحلى ناسها. ذقت لأول مرة في حياتي زيت بلادي وزعتره ونتاج كرمه وعطاء نخيله وبرتقال بساتينه. أسعدني أن أسير في شوارع نابلس والخليل محاطة بفلسطينيين يتكلمون لهجاتهم ويباهون أنهم مازالوا رغم ما عرفوا من ألم وما لقوا من عسف، على الوفاء للأرض وتاريخ الأجداد. أحسست أنني اعيش تجربة فريدة، التعبير عن الحب الذي اختزنته سنين طوال للأرض التي ارتبطت بها وأنتميت لها رغم البعاد. قلت لغريب ذات مساء: "هو حب فريد من نوعه لم تؤثر فيه سنين البعاد بل زادته ألقاً. أنا الآن أعيش زمن البوح بحب حملته في وجداني سنين طوال لمكان تعلمت أن أحبه مذ عرفت معنى الحب. ". ضمني إلى صدره وهمس: "ما أحلى حبك يا سهام."

انتهت أيام تجولنا في فلسطين، وصار علينا أن نتوجه إلى غزة، المكان الذي سنبحث فيه عن حياة جديدة. الطريق بين القدس وغزة طريق سريع منظم، تستغرق الرحلة عليه ما يقرب الساعة. قبل انتصاف النهار، وصلنا معبر إيريز في أقصى شمال قطاع غزة، على المدخل البري الوحيد الذي يربط غزة بإسرائيل وبالضفة الغربية. الفلسطينيون يطلقون عليه اسم بيت حانون، بينما نسبه الإسرائيليون إلى أول مستوطنة أقيمت على الحدود الشمالية لقطاع غزة، بعد عام على نكسة حزيران، مستوطنة إيريز، التي تمتد لمساحة تتجاوز الألف دونم، وتضم عشرات المصانع والورش ومكاتب إدارة شؤون القطاع قبل أن تدخله السلطة الفلسطينية في صيف عام أربعة وتسعين.

وجدنا أنفسنا نقف أمام موظف الحدود الإسرائيلية في انتظار أن يمنحنا الإذن بدخول غزة. استغربت ذلك، فنحن نغادر إسرائيل وندخل غزة وعليه أن يعطينا الإذن بمغادرة إسرائيل لا بدخول غزة، فإذن دخولها يجب أن يكون من اختصاص موظفي الدولة التي تديرها، السلطة الوطنية الفلسطينية. لكن يبدو أن الأمور لا تسير حسب ما هو متعارف عليه دولياً بل حسب ما تم الاتفاق عليه في آوسلو، أن يكون الجيش الإسرائيلي هو من يسمح بالدخول والمغادرة ليحمي المستوطنات الإسرائيلية في غزة. هذه المرة لم يكن هناك مجندات بل جيش، قوة وسلطة. فتش الجنود الإسرائيليون السيارة بعد أن أنزلنا منها الحقائب ووضعناها في جهاز الفحص. تمعنوا في جوازات سفرنا ووضعوا دمغة على بطاقة الدخول إلى قطاع غزة. عدنا نجلس في السيارة. تحركنا بضعة أمتار نحو الحاجز الفلسطيني. رفع رجال الأمن الفلسطينيون أيديهم مرحبين ونحن نمر من أمامهم وأشاروا لنا بمتابعة رحلتنا. همهم عبد الواحد: "مش فاهم ليش اليهود همه إللي بيسمحوا لنا بدخول مكان المفروض أن تديره السلطة الفلسطينية مش إسرائيل." لفنا الصمت وكأننا نشاركه سؤاله.

تشاغلت عن التساؤلات بمحاولة استيعاب كل ما أمر به من بيوت وشوارع ومعالم. رحت أقرأ اللافتات المعلقة على المحلات التجارية، مطاعم وورشات تصليح السيارات ومحلات لبيع الآثاث والملابس. بدت غزة مدينة منسقة شوارعها عريضة تحف بها الأشجار، ويليق بها أن تكون نواة الدولة الفلسطينية القادمة. أشار عبد الواحد إلى يمينه وهو يقول:"هذا هو حي الشجاعية الشهير." بدا مكاناً مزدحماً يشبه مخيم برج البراجنة الذي تسللت إليه في طفولتي. حاولت أن أذكّر نفسي أن في غزة عدة مخيمات للاجئين، الشاطئ، والبريج، وجباليا، لأن غزة استقبلت عام ثمانية وأربعين آلاف النازحين من مدن وقرى الشمال الساحلية وبعض المدن القريبة. عدت أراجع ما جمعت من معلومات عن المكان الذي أعيش فيه لحظتي. قطاع غزة

جزء من فلسطين التاريخية، لكن احتلال الأرض الفلسطينية التي تجاوره، عزله خاصة بعد بناء سياج يفصله عن مدن النقب. قبل عام سبعة وستين كان هناك قطار يربطه بالقاهرة ولازالت أثار محطة السكة الحديد موجودة في مدينة غزة. قطاع غزة من أحد أكثر الآماكن كثافة سكانية في العالم، كان قبل النكبة، تحت سلطة الانتداب البريطاني، ثم تحت الحكم العسكري المصري، واحتلته إسرائيل لخمسة شهور أثناء العدوان الثلاثي على مصر عام ستة وخمسين ثم انسحبت منه، لتحتله من جديد بعد حرب سبعة وستين. اليوم تسَلَّمت زمام الأمور فيه سلطة الحكم الذاتي الفلسطيني. أغمضت عيني لحظة وعاهدت نفسي أن أقبل بكل ما سأراه وأتعايش معه، فأنا الآن على الأرض التي حلمت بزيارتها مع غريب.

توقفت السيارة أمام بناية من عدة طوابق. همس عبد الواحد: "هذا هو فندقنا." كان فندقاً صغيراً نظيفاً. صعدنا إلى غرفنا. أزحت الستارة عن النافذة الكبيرة. رأيت البحر يتلألأ تحت أشعة الشمس. همست: "ما أحلى بحر غزة." وقف غريب خلفي. لفَّ ذراعيه حولي وراح يمرجحني في حضنه. همهم: "أخيراً، أنا وأنت في غزة. هل تذكرين كم حكيت لك عنها؟ وقلت لك إني محتاجك معي فيها؟ ها هي تضمك. وها أنا أحتمي بك فيها." أحسست أن صوته تهدج استدرت نحوه. احتضنت وجهه بين يدي وقبلته. ضمني إليه وبدأ ينشج. همست: "حبيبي." استكان في حضني. هو يدرك أن رحلة عودته إلى ما فارق منذ سنين ستبدأ بعد قليل، حين يأتي شقيقاه إلى الفندق ليختصرا ثلاثين سنة من عمره. سيقولان ويستمع، وسيقول ويستمعان. سيرى أمه وزوجتي شقيقيه وأولادهما. سيعود لبيت أبيه عطا الله البناء. همست: "غريب سيكون كل شيء كما تحب." رفع رأسه. تأملني لحظة وهمس: "خايف يا سهام. خايف على حلمي من الواقع وخايف أن لا أحسن التعامل مع الواقع الذي لا يشبه الحلم."

أحسست أنه اختصر كل ما دار في وجداني منذ وصلنا فلسطين، الخوف من أن لا تتشابه أحلامنا مع ما سنجد على الأرض التي نريد أن تكون المكان الذي نريده أن يشهد تحويل تلك الأحلام إلى واقع. هو خوف مشترك بيننا نحن الأربعة على حلم متشابه، سنتقاسم فرحة تحقيقه وألم التخلي عنه، أن نجد لأنفسنا مكاناً في هذه الدولة الفلسطينية الجديدة؟ نحن لا نعرف إن كان من جاؤا قبلنا نجحوا في تحقيق الحلم الذي أتى بهم إلى هنا، أم أنهم عادوا بخيبة أمل؟ نحن جئنا على أمل أن نحقق ما نأمل. عبد الواحد أعد دراسة مستفيضة عن مشروعه الزراعي، المزارع الجماعية والإنتاج الذي يسد حاجة غزة ويفيض. غريب استعد ببحث عن التوسع العمراني في المدن الساحلية ذات الكثافة السكانية العالية. منى تتمنى أن تدير معهداً

للتمريض قد يكون جزءاً من "جامعة فلسطين" التي لابد أن السلطة الفلسطينية تطمح بإنشائها. أنا أحلم أن أدرب مدرسي اللغة الإنكليزية لإقامة دورات تأهيل للبالغين ليمكنوهم من اكتساب المعرفة اللغوية لمناقشة قضاياهم الهامة في المحافل الدولية. أي أننا رغم اختلاف تخصصاتنا، نريد أن ننجح في أن نضع ما اكتسبنا من خبرة عبر السنين في خدمة هذه الدولة الفلسطينية الجديدة.

جلسنا في قاعة الفندق ننتظر وصول شقيقيَّ غريب علي وعدنان. حين رأهما يدخلان من الباب الكبير، قام من جلسته وتجمد في مكانه. ظل واقفاً يبحلق فيهما دون أن يقول شيئاً. سارا نحوه. وقفا أمامه يتطلعان إلى وجهه. فجأة احتضن الثلاثة بعضهم. تعالى همس غارق في الدموع وترديد لكلمات متبوعة بأسمائهم، غريب علي عدنان. بكوا وأبكوا كل من حولهم. فاض بينهم حب ظل حبيس البعاد ثلاثين عاماً، ثلاثة أخوة لم يعرفوا العيش المشترك منذ سنين، لم يتشاكوا و يتناقشوا أو يتقاسموا فرحاً أو حزناً. حين غادر غريب إلى القاهرة.، كان علي في الرابعة عشرة وعدنان في العاشرة. اليوم هما رجلان عاشا الكثير من الصعاب التي تابعها غريب "من على بعد"، كما قال لي مرة إبنه نور في إحدى زيارته لنا في لندن قبل سنين يوم جاء لإكمال دراسته في جامعة كارديف في ويلز. كان مقتنعاً أن الفلسطينيين في الشتات، عاشوا العذاب الفلسطيني من على بُعد، لم يشموا رائحة الموت والدم أو ترعبهم أصوات القنابل والانفجارات أو تتراكم في دواخلهم تجارب الخوف من ملامسة الموت لمن حولهم. فعد السياط ليس كتحمل لسعها.

أربكني يومها كلامه. تساءلت هل عد السياط مجرد فرجة؟ ألا يوجع مرتين؟ مرة، لأنه يعني احتمال عذاب الآخر، ومرة لأنه يذكر بالعجز عن وضع نهاية له. حاولت أن أجد المنطق الصحيح في هذا النقاش الفلسفي لرؤية لا تمت بصلة للواقع المعاش. فالبعد الجغرافي لا يحمي من الألم والمعاناة، وكثيراً ما يضاعفه. معاناة الفلسطيني في الشتات، مزدوجة لأنها عجز المحروم من أرضه وأهله عن عمل ما يمكن أن يضع حداً لعسف المحتل على أرض محرم عليه دخولها، وموت الفلسطينيين في السجون والمخيمات والحروب يذكر الفلسطيني في شتاته بعدم قدرته على عمل ما يمكن أن يضع حداً لعذاب مواطنيه وهو عنهم بعيد. حتى الانتفاضة الأولى التي جددت الأمل بديمومة وقوة وبأس الفلسطينيين كشعب، كرست الإحساس لدى من لم يشاركوا فيها بحرمانهم من حقهم المشروع في مواجهة ومقاومة المحتل.

انتبهت على صوت عبد الواحد يقول بصوت متهدج: "خلص يا شباب دوبتوا كلوبنا ربنا يحميكم ويخليكم لبعض. خلص الله يرضى عليكو، كوموا رَوحوا. عندكم سيارة؟ إذا بدكم خذوا سيارتي وروحوا عند الواله وإفرحوا بلمتكم." صاح علي: "تسلم يا رب يا دكتور. معانا سيارة وبكرة منتظريكم على الغدا. عدنان رح يجي ياخدكم انت والست منى." همهم عبد الواحد: "تسلم. وسلمولي على الوالدة وكل الأهل." كانت سيارة لاند روفر قديمة تتنتظرنا عند باب الفندق. تولى عدنان القيادة وجلس علي بجانبه في المقعد الأمامي، وجلسنا أنا وغريب في المقعد الخلفي. همهم عدنان: "هذه سيارة اشتريتها سكراب وصلحتها. شوفها يا خوي يا غريب زي العروس."

كانت وجهتنا الشمال الشرقي لمدينة غزة حيث يقع مخيم جباليا، غير بعيد من الطريق الرئيسي الذي يصل غزة بيافا عند قرية بيت لاهيا. ألصقت جبيني بزجاج السيارة في محاولة لاستيعاب كل ما نمر به. حاولت أن أتابع كل التفاصيل. حين اقتربنا من المخيم رأيت بساتين الحمضيات القريبة منه. همهم عدنان: "قربنا نوصل." سنصل المخيم الذي انطلقت منه شرارة الانتفاضة الأولى في بداية عام سبعة وثمانين. همست: "مخيم جباليا أبو الانتفاضة الأولى." صاح علي: "كنت أيامها شب وبنّاء معروف بشتغل مع أبوي، بس شاطر كثير في تكسير الصخر، كنت أكسره واتركه كوام كوام، عشان يكون عند الأولاد حجارة. أكسِّر وأترك أكوام الحجارة عند الطريق الرئيسي." صاح غريب ضاحكاً: "آه يا علي يا خوي. أنا يومها تمنيت أرجع ولد صغير عشان أحدِّف حجار على الجنود الإسرائيليه." تضاحك علي: "ولا يهمك كان في ولاد كثير. جباليا فيها مدارس كثيرة وولاد كثير الله يديم الأُنروا، والولاد كلهم شطار في رمي الحجارة، بيعرفوا كيف يصيبوا وإنه لازم يكون الحجر صغير وثقيل عشان يوجع مظبوط." تعالى ضحك الأخوة الثلاثة.

تلاحقت الصور في مخيلتي لأطفال الحجارة الذين بهروا العالم وجددوا الأمل لفلسطين وأهلها قبل أن يسكتهم أصحاب المصالح التي لا تريد أن تكون الكلمة للشعب. عدت أتابع كل ما نمر به. دخلت السيارة شارعاً تحيط به بيوت متلاصقة من الجانبين، يجلس أمامها رجال ونساء من كبار السن، وكأن هذا قدرهم، أن ينتظروا ما لا مفر من انتظاره، بغض النظر أنه سيأتي ولا يأتي، وحولهم أطفال يلعبون في الشارع ويتصايحون. كانوا يجلسون على صناديق خشبية جلسة الرجل الذي شاهدته في طفولتي يجلس على صندوق يرقب الحياة من حوله في مخيم برج البراجنة. بدا الشارع المحاط بالبيوت والدكاكين الصغيرة، متسعاً بعض الشيء. همست: "الشوارع مش كثير ضيقة في جباليا" أسرع عدنان يقول: "هذا الشارع

الرئيسئ عرّضوه الإسرائيلية عشان تفوت منه دباباتهم، بعد ما سيطروا على الأمور، بعد الانتفاضة الأولى. بس عشان يعرضوه، هدموا واجهات البيوت والدكاكين." اعتصر قلبي الحزن وأنا أحاول أن أتخيل تفاصيل ما حدث. الجرافات الإسرائيلية تجرف الرصيف وواجهات البيوت والدكاكين لتفصل شارعاً على مقاس دباباتها.

رأيت مبنى صغيراً يحمل لافتة المركز الطبي. همست: "ممتاز في عيادات طبية." أسرع علي يقول: "في عيادة للأمومة والطفولة، وعيادة للأسنان، وعيادة للعيون، بس ما في أدوات طبية ولا أدوية. يعني إنت وحظك. وعشان هيك معظم الحالات المرضية بتروح على مستشفيات غزة." التفت علي نحوي وهو يقول باسماً: "بس بعدو عندنا مدارس كثيرة ابتدائية وثانوية، وإعدادية، وولادنا عم يتعلموا، وبعدنا بنزرع في بيت لاهيا وبيت حانون وبنصيد السمك."

توقفت السيارة أمام سياج مرتفع من الطابوق الإسمنتي. نزل علي من السيارة وفتح البوابة الحديدية الزرقاء وهو يصيح: "يمه يمه غريب وصل." خرجنا من السيارة. وقفت قرب البوابة. خطا غريب ببطء داخل البوابة الحديدية. جاءت سيدة صغيرة الحجم بثوب كحلي وعلى رأسها نقاب أبيض، وقفت أمامه وراحت تتأمل وجهه. انحنى عليها وضمها. تعالى نحيبها. لفها بذراعيه وراح يهدهدها. همهمت بين دموعها: "يمه يمه يمه. يا حبيب إمك يمه. يمه يا حبيب إمك يمه." حاولت أن أتماسك لكن دموعي خانتني. انتحب علي وعدنان. خرجت إمرأة شابة تحمل طفلة رضيعة يتبعها ثلاثة أطفال، وشابة ببطن منفوخة يتبعها طفل في الثالثة يبكي بحرقة. اجتمعوا كلهم حول غريب. صاح عدنان: "خيا مرتي فاطمة وولادي. يا ولاد سلموا على عمكوا غريب أبو نور." قدم عدنان زوجته سهيلة وابنه غريب الصغير. صاح غريب وهو يحمله فوق رأسه: "يا حبيب عمك يا غريب." كنت أقف قرب الباب الحديدي ابتسم وأنا أمسح دموعي. خطوت خطوة نحو الجمع. مد غريب ذراعه نحوي وهو يقول: "تعالي يا حبيبتي تعالي. يمه هذي سهام. سهام عروستي يمه." وجدت نفسي في حضن أم غريب وهي تقبل وجهي قبلات متلاحقة. ملأت صدري رائحة ذكرتني بجدتي رحمها الله. استكنت في حجرها. قبلت وجوهاً باسمة دامعة واطفالاً كالزهور. حملت إبنة علي الرضيعة. همست أمها: "عقبال ما نفرح بولادكو يارب." لف غريب ذراعه حول كتفي وسار بي إلى داخل البيت.

بعد أيام قليلة بدا واضحاً إن ما جئنا لأجله، تقديم الخبرات والعمل، لن يحدث. فكل شيء في غزة يتم بالعلاقات الشخصية مع أصحاب السلطة من وزراء ومدراء ومسؤولين. كلهم جمعوا حولهم من يأتمرون بأوامرهم ويعبرون عن ولائهم المطلق ويكيلون لهم المديح على كل ما يقولون ويفعلون. كلهم نفعيون استفادوا من كل ما يمكن أن تمنحه المراكز الجديدة في غزة من امتيازات، شراء الشقق في الأبراج العالية بقروض بلا فوائد، وامتلاك السيارات ذات النوافذ التي لا تظهر من يجلسون في داخلها وتحمل حرفين، س ف، سلطة فلسطينية، ويمتاز صاحبها أنه يحمل هوية V.I.P "شخص مهم جداً" وعليه فكلهم لا يحبون النقد كونهم مُهمّون ويعتبرونه مضيعة للوقت، لأنهم يرون أن كل ما في غزة يسير بشكل مرضٍ وعلى أحسن حال ولا داع "لنفخة القلب." ثم إن الخبرات القادمة من العالم الخارجي، ناقدة سليطة اللسان لا تفهم الواقع الفلسطيني ولا الكفاح الفلسطيني من أجل تحرير الأرض. لذلك هي غير مرحب بها لأنها ببساطة شديدة، غير قادرة على التعامل مع "طبيعة الحياة الفلسطينية الجديدة."

المضحك في الأمر هو أن معظم من كانوا يروجون لتلك الأفكار، لم يعيشوا في غزة من قبل، ولا يعرفون شيئاً عنها. كلهم من وزراء ومدراء، جاؤا غزة بعد سنين الشتات، أو نزحوا لها من بعض المدن الفلسطينية، ليتولوا زمام الحكم، ويتمتعوا بما يتيح من امتيازات، مقابل أن يفتوا في أمور لا خبرة لهم فيها على الإطلاق. لذلك، لم يعنهم تقرير عبد الواحد عن الزراعة، ولا دراسة غريب عن التوسع السكاني، ولا خبرتنا الطويلة أنا وسهام، في مجالين مهمين.

بعد أسبوعين عدنا نحن الأربعة إلى لندن. عاد غريب وعبد الواحد ومنى لأعمالهم، ووجدت أنا عملاً كمعلمة للإنكليزية للبالغين مع إحد المعاهد المتخصصة، وبقينا، كلما أصاب غزة الحيف والضرر والدمار نستذكر الأسبوعين الذين قضيناهما فيها ونتحسر على أننا لم نعد قادرين على زيارتها لأنها خلف أسوار العزل، رغم أن إسرائيل انسحبت منها كلياً عام ألفين وستة، بعد عشر سنين من زيارتنا الأولى لها. زرناها أنا وغريب مرة ثانية عام ألفين يوم توفيت والدة غريب. أحسست يومها أن غريب يودع غزة وشقيقيه وأبنائهما. قال لي متأسياً: "ما أظنش يا سهام إني راجع لغزة مرة ثانية." عشنا رغم الحزن أياماً من فرحة التئام الأسرة. كان ذلك قبل أن تندلع الانتفاضة الثانية التي أثارها اقتحام شارون لباحة المسجد الأقصى بأيام. وحين بدأت الأخبار تتواتر عن تأزم الوضع في الأراضي الفلسطينية، رجانا عدنان أن نغادر قبل أن

تسوء الأمور وتغلق المعابر. في صباح اليوم التالي، كانت سيارة برقم إسرائيلي تنتظرنا عند معبر إيرز، أخذتنا إلى مطار اللد وعدنا إلى لندن.

حاولت أن أخفف أحزان غريب. لكنه كان مدركاً أنه لن يعود لغزة مرة ثانية لأن متغيرات كثيرة ستحدث بعد أن بات واضحاً أن السلطة الفلسطينية فشلت في إقامة دولتها. كان على حق. فبعد عام فازت حركة حماس بعدد كبير من مقاعد البرلمان الفلسطيني في الانتخابات، وسيطرت على الحكم في غزة بعد مناوشات مع عناصر فتح. ملأنا حزن يصعب وصفه، يوم أرتفع السلاح الفلسطيني في وجه الفلسطيني. مع انتصاف العام، سيطرت حركة حماس على القطاع بكامله بكل مؤسساته الأمنية والحكومية، وانقسمت الدولة الفلسطينية إلى دولتين واحدة لفتح والثانية لحماس، وضاعت قضية إقامة دولة فلسطينية، وإن ظل شعار إقامة الدولة الفلسطينية وعاصمتها "القدس الشريف"، قائماً حتى في أحلك الظروف التي عاشها ياسر عرفات قبل وفاته.

خلال الاعوام التالية عرفنا حزن فقدان الأحبة، توفي أبي وبعده أمي بعامين في نهاية عام ألفين وثمانية، وشنت إسرائيل حروباً عدوانية شرسة على قطاع غزة، كنت حين أتابع أخبارها وأرى الموت، أترحم على أمي وأبي وكل من فقدت من أحبة. وحين فُرض الحصار على غزة، أحسست أن كل خيوط الأمل التي تربط غريب بأهله تقطعت، خاصة مع فشل كل محاولات المنظمات الإنسانية الدولية عبر السنين لكسر هذا الحصار، وازدادت قناعتي أن ما يحدث هو وضع نهاية للقضية الفلسطينية برمتها.

اليوم هناك مشروع ضخم يطلقون عليه إسم صفقة القرن، سيغير الكثير من معالم حياتنا ومصائر الناس في العالم العربي. لا أريد أن أخوض في السياسة، فقط أريد أن أقول إن سنين خيبة الأمل التي عرفناها في شبابنا لم تتوقف مطلقاً وأظنها لن تفعل وستظل ترافقنا حتى نهاية العمر.

غريب في غيبوبة يبدو أنها ستطول، وعليَّ أن أخبر أولاده. حاولت أن أؤجل الموضوع يوماً او أثنين، على أمل ان يصحو وتمر الأزمة. لكن ثلاثة أيام انقضت وهو مازال على حاله، وصار عليَّ أن أعلم إبنه نور وابنته ناهد بما حدث. أخشى ما أخشاه أن يتصل به أحدهم وأجد نفسي في موقف حرج. قبل ذهابي إلى المستشفى، اتصلت بسمية حاولت أن أتماسك وأنا أحكي لها ما حدث. استمعت إليَّ بصمت ثم بدأت تبكي. رحت أهدئها وأوكد لها أنه بخير وهناك أمل كبير أن يصحو من غيبوبته فصحته العامة ممتازة. تمالكت نفسي وأنا أقول إن وجود نور وناهد حوله قد يساعده على العودة من هذا الغياب الصامت. تهدج صوتي وأنا أهمس: "هل يستطيعان المجيء إلى لندن؟ أعرف أن لديهما أعمالهما وارتباطاتهما." أسرعت تقول: "كلام إيه ده إللي بتقوليه يا سهام؟ أكيد حيجوا يا حبيبتي." حاولت أن أكتم دمعي. عادت تقول: "خلي إيمانك قوي يا سهام، حيصحصح يا سهام صدقيني. حيصحى ويرجع زي ما كان وأنا حزوركم لما يرجع البيت بإذن الله."

بعد ساعة، أتصل بي نور. كان صوته يرتجف وهو يسأل عن أحوال أبيه. حاولت أن أطمئنه. همست باسمة: "نور تعال أنت وأولادك حيفرح بيهم جدهم وخلي ناهد أتجيب أولادها بدنا نفرحه يا حبيبي." في المساء اتصلت بي ناهد. بكت وهي تقول إنها كانت في اجتماع مهم وهاتفها مغلق. تتابعت أسئلتها عن حال أبيها. طمأنتها، قلت إنه بخير وصحته العامة ممتازة. تضاحكت وأنا احكي لها كيف أمضي نهاراتي قرب سريره أحكي له الحكايات وأقرأ له عنواين الصحف، وأُسمعه ما يحب من موسيقى لعل شيئاً من ذلك يعيده من رحلته. لكن أفضل ما يمكن أن يسعده هو أن تكون هي ونور بقربه. همست بين دموعها: "حبيبتي يا تانت سهام. سنكون عندك بعد بكره بس مش مع الأولاد. حيجوا لما يصحا بابا ونعمل حفلة كبيرة." حاولت أن أتمالك نفسي وأنا أعدها خيراً. طلبت مني أن أهتم بنفسي. همهَمَت: "مانتي برضو بغلاوة بابا."

حين عدت إلى المستشفى في صباح اليوم التالي، قلت له إن نور وناهد سيأتيان لزيارته في عطلة الأسبوع. قرَّبت وجهي منه. أحسست بتتابع انفاسه خلف القناع البلاستيكي. أمسكت بيده ووضعتها على خدي: "نور وناهد جايين يزوروك يا غريب." قبَّلت يده وعدت أقول: "غريب حبيبي، هل سمعت ما قلته لك الأولاد جايين يزوروك بداية الاسبوع. نور وناهد جايين لعندك." خيل لي أن ابتسامته اتسعت. تذكرت ما تظل تردده الممرضة عن الحركات اللاإرادية، كأن يرمش جفنه أو يتحرك أحد أصابعه. ضغطت على يده برفق وأنا

أتأمل وجهه. همست: "غريب، عد إلينا يا حبيبي فمازال في العمر بقية أريد أن أعيشها معك. أنا في ضياع في غيابك. البيت موحش. عد لي يا حبيبي." قبلت يده وتركتها في استرخائها. قمت من مكاني وجلست على الكرسي المقابل للسرير. تأملته في رقاده المستكين. غريب مازال كما عرفته قبل سنين، هادئ مبتسم محب. احتفلنا بعيد ميلاده السبعين في نهاية العام الماضي. ذهبنا إلى القاهرة مع منى وعبد الواحد، وأقمنا في فندق "النيل هيلتون" الذي تغير اسمه إلى النيل ريتز كارلتون. قال لي ضاحكاً حين صعدنا لغرفتنا: "خلينا نسترجع أيام عرسنا يا سهام."

أصرَّت سمية أن يتم الاحتفال في بيتها وليس في أحد المطاعم. قالت: "بيت العيلة أجمل. وبعدين حنروح فين بالأحفاد خليهم ينبسطوا بعيد ميلاد جدو." أحسست أنني أحب هذه الإنسانة المحبة المعطاءة. طلبنا ما نحتاج من طعام من مطعم معروف يقوم بتوصيله إلى البيت، وكيكة كبيرة ليفرح الأحفاد. كان حفلاً عائلياً بامتياز. أحسست بقلبي يذوب وأنا أرى غريب بين أولاده وأحفاده. درت حولهم سعيدة بما أحظى به من حب، وما يدخلون على حياتنا من سعادة تشع في كل الوجوه حولي. عبد الواحد أعد له مفاجأة، راقصة ترتدي ملابس بنت البلد، الفستان بذيل مكركش والملاية اللف. ضحكنا طويلاً وغنينا ما حفظنا من أوبريت الليلة الكبيرة، وكأننا نستعيد شبابنا. كنا أسرة متماسكة محبة تكاملت وكبرت وأزهرت وأورقت، رغم سنين الغربة والبعاد. سألني غريب يومها وهو يضمني أين أريد أن أحتفل بعيد ميلادي السبعين بعد خمس سنين؟ همست: "معك حيث تكون." التمعت عيناه. أنا معه الآن لكني لا أعرف أين هو وبم يفكر وهل يسمعني أم لا.

جاء نور وناهد. جلسا على جانبي السرير. تأملا والدهما بصمت. أمسكت ناهد بيده قبلتها وهمست: "حبيبي أنا جيت عشان اشوفك. إنت سامعني يا بابا؟" همهم نور محاولاً أن يغالب تهدج صوته: "إيه ده يا سي بابا، قوم بقى كلمنا إحنا جايين نشوفك." حاولت ان أكتم عواطفي وأن لا أنهار أمامهما ببكاء أحسست أنه لن يتوقف لو بدأ. تركتهما معه وخرجت. راقبتهما من خلف الزجاج الفاصل بين الغرفة الصغيرة والممر الذي يؤدي إلى غرف مشابهة. كانا مازالا على جلستهما حوله يتأملان وجهه الباسم. قربت ناهد وجهها منه وبدأت تحدثه. قبلت يده ومسحت عليها بخدها، وهي تقول له كل ما اختزنت من خوف ولهفة. تناوبا على الحديث والابتسام ومكابرة الدمع. ثم جلسا صامتين يتأملانه. لمحتني ناهد فأشارت لي بالدخول.

أسرعت تقول لغريب: "خلاص بقه يا بابا إصحى أنا ونور وتانت سهام عايزين نقولك شوية حاجات مهمة، أولها إننا بنحبك يا جميل."

في البيت، جلس نور صامتاً. كان فيه حزن لا يريد أن يطلق له العنان. حاولت أن أهدئه. تأملني لحظة وطلب مني أن احكي له من جديد تفاصيل ما حدث. عدت أحكي الحكاية من أولها. همهم: "بس الدكاتره بيقولوا إن صحته العامة ممتازة. معنى ده إنه لازم يصحا لازم يرجع، هو عارف كويس إننا لسه عايزينه يا تنانت سهام." بدا كطفل صغير. همست: "رح يرجع يا نور. رح يرجع. بس لازم نصبر يا حبيبي." صاحت ناهد: "طبعاً حيرجع. أنا شخصياً مقتنعة تماماً أنه بيسمع كل اللي بنقوله وبيستوعبه." ابتسمت فهذا هو شعوري أنا أيضاً. راح نور يردد ما سمعه من الطبيب المختص، بأن غريب سيخرج من غيبوبته. فكل الدلائل الصحية في صالحه رغم قسوة وصعوبة الانتظار، إلا أنه سيحدث في النهاية. تأملني بعينيه الكبيرتين: "أنت من سيمضي الساعات ينتظر قرب سريره يا تانت سهام." قلت باسمة: "سأنتظر مهما طال الانتظار." تضاحكت وأنا اتساءل: "ترى ماذا سيكون أول ما يقوله حين يعود إلينا؟" همست ناهد: "كيفك يا سهام يا حبيبتي."

بعد بضعة أيام غادر نور وناهد. كان عليهما أن يعودا لأعمالهما والتزاماتهما الأسرية. ودعتهما وأنا أعدهما بلقاء قريب وحفل ضخم بسلامة غريب لكل الأصدقاء في القاهرة. أعادني غيابها لإحساسي بالوحشة. منى كانت تزورني كل يوم، أحياناً تاتي مع عبد الواحد إلى المستشفى ثم يعودان معي إلى البيت. لكن عبد الواحد كان لا يحب البقاء في بيتنا طويلاً. كان يهمهم: "البيت مش حلو في غياب غريب. يا رب يرجع لبيته رغم طولة لسانه." كنت أضحك وأهمهم، آمين يا رب يسمع منك يا غريب. منى قالت لي مرة: "أتاريكي صبورة يا سهام وقوية." ابتسمت. صبورة ربما لكن ما لا تعرفه هو أنني عشت عمري أكره الانتظار وأغضب ممن يتأخر على المواعيد، الآن صار الانتظار هو الأمل، هو الوعد بعودة غريب. لذلك حاولت أن أعتاده وأحبه وأرضى به وأمارس روتين حياتي الجديد، أجلس لساعات أرقب غريب وأناديه من أعماقي أن يعود إليَّ.

مضى أسبوع آخر على سفر نور وناهد. صحوت يوماً كعادتي على صوت المُنبّه بعد ليلة من النوم القلق المتقطع. أحسست أنني أكره هذا المنبه الغبي، ولا أريد أن أصحو على رنينه المزعج. قلت لنفسي لم

المنبه؟ لم لا تصحين كما كنت تفعلين دائماً، بلا منبه. لم جعلته جزءاً من حياتك مذ حدث ما حدث لغريب، يوم عدت من المستشفى مع ساعات الصباح الأولى وضبطته لتصحي وتذهبي للمستشفى؟ اتخذت قراراً حاسماً لا رجعة فيه، أدرت القرص الخاص بعقرب التنبيه وأطفأته. أحسست برضا خفي عن النفس. شربت قهوتي وارتديت ملابسي وذهبت إلى المستشفى. تبادلت التحية مع الممرضة وسحبت الكرسي الصغير قرب السرير. تأملت وجه غريب الباسم. هو في غيبوبة منذ ثلاثة أسابيع وأربعة أيام. قربت وجهي منه وهمست: "غريب حبيبي صباح الخير على عيونك. اشتقت لعينيك، للمس يديك، لهمسك. وأعترف لك يا غريب أنني ببساطة شديدة، مش عارفة أعيش بدونك. أرجوك يا غريب أرجع لي أنا محتاجة لك أكثر مما تتصور وأتاريني يا أبو نور بحبك كثير." مسحت على خده. قبلت يده وهمهمت: "أقولك الحق، أنا تعبانة، تعبانة كثير يا غريب. تعبانة من غيابك رغم أنك موجود. اليوم طفيت المنبه. إنت عارفه المنبه اللي في غرفة نومنا. بتتذكر شو صوته قوي ومزعج؟ كنت لما تصحو عليه يوم السفر تسكب عليه اللعنات. أتقول زي هاون الجيران لما يحبوا يغيظوا جيرانهم. أنا اليوم شتمته، وقلت لحالي بكرة بدي أصحى من دونه. أنت تعرفني، لا أتأخر في النوم، وناموسيتي مش كحلي زي ما بيقولوا المصريين. أنا مش عارفة ليش صرت أحطه يصحيني كل يوم على الساعة سبعة. خلص، من بكرة ما فيش منبه."

قمت من مكاني. أحضرت ما اشتريت له من صحف الصباح. عدت أجلس لأستعرض له عناوينها وأقرأ بعض ما فيها من أخبار تعنيه. بوريس جونسون، رئيس وزراء بريطانيا الجديد يشكل وزارته. والبركسيت ستحدث لا محالة. إسرائيل لا تعليق على هدم البيوت السكنية الفلسطينية في القدس. السلطة الفلسطينية تلغي كل اتفاقياتها مع إسرائيل. تضاحكت. يعني من ضمنها الاتفاقيات الأمنية. طيب كيف سيعيش المسؤول الفلسطيني بدون بطاقة V I P والتنسيق الأمني وعدم الوقوف على المعابر؟ كلهم يظنون أن السفر من مكان لآخر يتم بهذه الطريقة ويدهشهم أن يسافروا مثل بقية خلق الله على الدرجة السياحية وبدون مرافق وسائق خاص. تطلعت إلى وجه غريب. خيل لي إنه يحاول أن يمنع ضحكة.

في المساء عدت للبيت. جاءت منى وعبد الواحد لزيارة قصيرة. جلس عبد الواحد صامتاً. قلت له: "طول بالك يا عبود قربت اتهون." همهم: "الله يسامحه اشتقت له كثير." حين غادر عبد الواحد ومنى، أخذت

حماماً ساخناً واستلقيت في فراشي. أدرت وجهي نحو المنبه. همهمت ضاحكة: "خليك ساكت مش رح أصحا على عجقتك خلص بطلت." تقلبت في فراشي وغفوت.

صحوت على صوت رنين عال. فتحت عينيي. خيل لي أن سقف الغرفة يهتز بفعل الرنين الحاد. درت بوجهي نحو المنبه. لِمَ ترن ألم أُسكتك؟ حاولت أن أستوعب المكان والزمان. أنا في فراشي والساعة الرابعة صباحاً. عدت أدور باتجاه الرنين. إنه هاتفي النقال. مددت يدي. كان الإسم على الهاتف، المستشفى. تجمدت في مكاني. تملكني خوف شل تفكيري. ماذا حدث؟ غريب؟ ما به؟ ضغطت الشاشة وهمست بصوت مرتجف: "نعم." جائني صوت الممرضة الخافرة تقول: "مسز أتا الله، مستر أتا الله صحا صحا وهو بخير ويطلبك. مسز اتا الله هل تسمعينني؟ هلو هلو." حاولت أن أفتح فمي. بلعت ريقي وهمست: "هلو نعم أسمعك أسمعك." عادت تقول وهي تحاول أن تغالب ضحكها: "مسز أتا الله نحن بانتظارك هو يلح في طلبك يريدك أن تحضري الآن." حاولت أن أستجمع نفسي. غريب صحا، صحصح كما تقول سمية وهو يطلبني. غريب صحا من غيبوبته. جائني صوت الممرضة: "مسز أتا الله هل مازلت معي؟" أسرعت أقول: "طبعاً طبعاً. أنا في طريقي إليكم. قولي له أنا في طريقي إليكم، قولي له سأكون عنده بعد دقائق وإنني أحبه." تضاحكت: "سأفعل بالتأكيد. سأفعل، نحن بانتظارك."

سلوى جراح

لندن آب 2019